# مختارات قصصية

# من الفائزين بجائزة نوبل للآداب

**مختارات قصصية**
**من الفائزين بجائزة نوبل للآداب**
**اختارها وقدمها: أحمد شلتوت**
**الطبعة: ٢٠٢٣**



**العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر**

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
**E-mail:** info@azhabooks.com



## بطاقة فهرسة أثناء النشر

من الفائزين بجائزة نوبل للآداب. – مختارات قصصية – اختارها وقدمها: أحمد شلتوت
– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
٢٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٠ – ٥ – ٨٦٦١٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٤٢٠ / ٢٠٢٣

# مختارات قصصية

## من الفائزين بجائزة نوبل للآداب

اختارها وقدمها

أحمد شلتوت

# مقدمة

يرى الكثيرون أن جائزة نوبل تتخذ موقفا سلبيا من فن القصة القصيرة، فلم يسبق أن فاز بها كاتب للقصة القصيرة، كل من فازوا بها من غير الشعراء كانوا روائيين، حتى أن سيد القصة القصيرة "أنطون تشيكوف" لم يفز بها، وجاء فوز الكندية "آليس مونرو" بالجائزة في أكتوبر ٢٠١٣، يمثل الاستثناء الذي يؤكد الجائزة، فهي الوحيدة من الأدباء الذين ذاع صيتهم باعتبارهم من المبدعين في فن القصة القصيرة وليس الرواية، بالطبع أغلب الروائيين أبدعوا في فن القصة القصيرة، وقدموا مجموعات رائعة، لكن مونرو تظل هي كاتبة القصة القصيرة الوحيدة التي فازت بجائزة نوبل في الآداب دون أن تكتب رواية واحدة.

## عالم سردي واحد

بالطبع كل الروائيين يدركون الفارق الجوهري بين كلا الفنين، لكن ذلك لا ينفي انتمائهما لعالم سردي واحد، فيمكن أن نستدل بالقصص القصيرة لنستكشف سمات العالم الروائي لكاتب ما، خصوصا الكبار الحائزين على نوبل، فمثلا يجد جارسيا ماركيز فى كتابة القصة القصيرة مايشبه صب الأسمنت المسلح. أما كتابة الرواية فهى عنده أشبه ببناء الآجر. بمعنى أنه إذا لم تكشف القصة القصيرة عن جدتها وجديتها فى المحاولة الأولى، فمن الأوفق أن يتخلى المبدع عن كتابتها. فتمزيق الأصول هنا تصرف مطلوب، يجب ألا يخالطه تردد أو إشفاق على الصفحات التى جرى تسويدها.

هكذا أوجز الكاتب الكبير أهم الفوارق بين الفنين السرديين، لكن بالرغم من ذلك يمكن أن تكشف قصص ماركيز القصيرة عن قوانين عالمه الروائي، فماركيز، «القاص» كان دائماً يسير بمحاذاة ماركيز «الروائي»، فالعالم القصصي لجابرييل جارثيا ماركيز بنفس قيمة عالمه الروائي، حتى أن أعمال ماركيز الشهيرة تشتمل على عدد من القصص القصيرة التي نهضت كأعمال فارقة يتذكرها قارئ ماركيز مثلما يتذكر رواياته، مثل «عينا كلب أزرق»، «أجمل غريق في العالم»، «جنازة الأم الكبيرة»، «ليس في هذه البلدة لصوص»، وغيرها.

كما أن عدداً من قصص ماركيز لعبت دوراً أبعد من استثمارها روائياً أو تجريب عدد من شخوصها وأمكنتها وأحداثها باعتبارها تمثيلاً لعدد من القوانين الجوهرية التي يمكن، بتتبعها، العثور على مشتركات عميقة تخص البنية العميقة، الأكثر تجريداً، ويمكن الوقوف على عدد من السمات العميقة التي حكمت طبيعة البنى الدرامية والحبكات وشكل العالم وتكوينه، وطرق تحريك الشخصيات الروائية كوظائف أو أدوار أو كتمثيلات للأفكار وإدارتها روائياً، بالاشتباك مع المكان الفني وشروطه بخاصة. ومن بين قصص عديدة لماركيز، قصه " بائعة الورد" التي تضمها هذه المختارات، وهي تمثل «نموذجاً» يتعدى قوامه كقصة تلخص عدداً من العناصر الأصيلة في العالم الماركيزي الروائي.

## أسرار معلنة

تبدأ المختارات التي تهديها "وكالة الصحافة العربية – ناشرون" بقصة

"أسرار معلنة" وفيها تبدو السمة الرئيسة لعالم هذه الكاتبة الكبيرة، التي أصدرت مجموعتها الأولى وهي على حافة الأربعين وفازت بجائزة نوبل وهي في الثمانين من العمر، فالقصة تعالج موضوع آليس مونرو المفضل، وقد خصصت له الكثير من القصص في مجموعاتها هو رصد العلاقات الاجتماعية بين الناس فى بلادها، لا سيما فى مدينة فانكوفر في كندا وتركيزها ينصبّ على العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر: أي تجربة مضى بها الزمن وتجربة قائمة تثير العجب لتشابهها فى النهاية مع تجارب الماضى القريب وربما البعيد. يمكن القول إن مفاتيح العالم القصصي لمونرو ليست كثيرة، فهي الريف والوحدة والذكريات التي لا يمكن وصفها بالسعيدة أو التعيسة، لكنها الحياة بكل بساطتها وهمومها وتفرعاتها المدهشة، ليصبح التجلي الأهم لديها هو كيفية تقديم هذه الموضوعات، وهو ما لا يمكن رصده عبر كلمات أو شروط واضحة. رغم النعومة التي تتسم بها قصص مونرو إلا أنها لا تخلو من انتقادات لكل من المؤسسات الدينية التي أصبحت ستاراً لكل ما هو سيئ، وهي محبة للأماكن التي أقامت وعملت فيها (كانت تملك مكتبة في فترة من حياتها). محبة للوحدة التي تصل إلى حد العزلة، ومفتونة فتنة بتقنيات القصة القصيرة، وعدم الرغبة في التحوّل إلى الرواية، وكانت ميزتها في عيون معجبيها أنها أثرت قصصها بالحبكة وعمق التفاصيل التي تميز الرواية الطويلة عادة.

والأبطال في قصصها في الغالب فتيات وسيدات يعشن حياة تبدو عادية لكنهن يصارعن محناً كالتحرش الجنسي أو الزواج المأساوي أو مشاعر الحب المقموعة أو متاعب الشيخوخة.

## ارتباط عاطفى

أما إبداعات الروائي الإنجليزي ذو الأصول اليابانية كازو ايشيجورو فتعبر عن ارتباط عاطفى باليابان حيث الجذور ومسقط الرأس ووطن الآباء والأجداد وهى حقيقة عبر عنها الكاتب بقوله "رغم نشأتى فى بريطانيا فإن جزءا كبيرا من نظرتى للعالم وأسلوبى الفنى يابانى لأننى تربيت فى كنف أبوين يابانيين ويتحدثان اليابانية".

وعن أسلوبه في كتابة قصصه قال كازو ايشيجورو، فإن للكاتب أن يترك "الكثير من المعنى تحت السطح" والقراءة المتعمقة لإبداعات ايشيجورو تكشف عن عناوين رئيسية تتصدر اهتماماته كمبدع وهى "الذاكرة والزمن والفقد والحرب والحب وتهاويم الذات" فهو الكاتب المهموم والمهجوس بمثالب الذاكرة وحقيقة الموت والطبيعة المسامية للزمن مع حس أصيل وإحساس حاد بمعطيات المكان وهو أيضا "المبدع الخارج بحذق على الأنواع الأدبية التقليدية" وهذا ما تكشف عنه قصته التي نضمها هذه المختارات، وهي "عشاء عائلي" التي تعد نموذجاً لأسلوب ايشيجورو في الاقتصاد اللغوي والتنوع في طرائق السرد، مع الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة واستخدام الرمز وتيمة الحديث عن التقاليد والثقافة اليابانية، هذا إلى جانب إحكام البناء القصصي.

## نماذج القصة القصيرة

إن القارىء المتأمل لهذه المختارات يمكنه أن يتلمس سمات الفن القصصي لكل كاتب ممن ضمت المختارات عملا قصصيا له، كما أنه يجد

في المختارات تمثيلا لنماذج قصصية عديدة تؤرخ لتطور فن القصة القصيرة من سلمى لاجيرلوف وحتى آليس مونرو، ومن هذه النماذج:

نموذج القصة الحبكة القائمة على الحدث: فكل القصص القصيرة قبل ظهور تشيخوف كان قائمة على حبكة محورها الحدث، فالحبكة كانت الأكثر أهمية ثم يأتي السرد كلاسيكيا ليكون وفق بداية ووسطية ونهاية. وما فعله تشيكوف من ثورة حقيقية في عالم القصة القصيرة ليس تجاهل الحبكة وإنما جعل حبكات كل القصص مشابهة لحبكة الحياة اليومية من حيث الغموض والفوضى والعشوائية والفظاظة والقسوة والخلو من المعنى.

نموذج القصة الأكثر حداثة: وتعبر عن التطور الذي أحدثه أرنست هيمنجواي. حيث يكمن الغموض وتبدو أفاق الصعوبة. فهيمنجواي قدم أسلوبا جديدا في كتابة القصة من حيث الغموض المترافق مع أسلوب مقتضب في السرد دون خوف من تكرار الصفات. ويأتي الغموض من خلال وجود شئ في داخل النص يجبر القارئ على القيام بجهود إضافية لمعرفته، وهذا ما يجعل القصة تترسخ في الذاكرة أكثر. لكن لو استخدم هذا الأسلوب في الرواية سيكون مضجرا.

نموذج القصة المبهمة فبينما كان هيمنجواي يقرّب الفكرة إلى القارئ ثم يبعدها فورا حتى يحافظ على الغموض، تأتي القصة هنا في نموذج جديد مبهم حيث يتحمل القارئ مسؤولية فك لغز القصة والمعنى الخفي الذي تعكسه دون أن يساهم القاص بتقريب الفكرة لقارئه.

نموذج القصة الروائية المصغّرة وهي قصة هجينة ومحاولة لإنجاز فكرة في

عشرات الصفحات تنجزها الرواية في مئات الصفحات، حيث نعثر على شخصيات كثيرة ومزيد من التفاصيل الواقعية. وقصة أسرار معلنة في هذه المجموعة خير مثال على هذا النوع من القصة التي يمتد زمن حبكتها سنوات.

نموذج قصص السيرة التي تستعير خصائص غير أدبية مثل التاريخ والتقرير الصحافي والمذكرات، وبنفس الوقت يمكن إدخال عنصر الخيال والأدب إليها. كما في القصة المختارة للكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش.

وأخيرا نتمنى لك قراءة مفيدة وممتعة.

أحمد رجب

# أسرار معلنة

## أليس مونرو*

ذات صباح أحد أيام السبتٍ، خرجتْ سبعُ فتياتٍ بقيادة الآنسة جونستون، للتخييم ضمن برنامج الفتيات الكنديات. قالت فرانسيس: «كِدْنَ يتراجعن بسبب الأمطار التي هطلت بغزارة صباح السبت. فانتظرن في الطابق السفلي للكنيسة لنصف الساعة، وقالت: سوف تتوقف الأمطار. لم تعطل الأمطار قطُّ رحلاتي الخلوية! والآن أراهن على أنها تتمنَّى لو أعاقتها الأمطار؛ إذن لَاختلفت القصة تمامًا عمَّا حدث.»

واصلن رحلتهن الخلوية لما توقَّفت الأمطار، وأمسى الجو حارًّا في جزء من الطريق لدرجةِ أن الآنسة جونستون سمحت لهن بالتوقُّف عند بيتٍ ريفي، حيث أحضرت لهن صاحبته زجاجات المياه الغازية، بينما أعطى لهن رجلٌ خرطوم الحديقة ليرشُشْنَ أنفسَهنَّ به فتبرد أجسادهن. كُنَّ يتبادلن الخرطوم الواحدة تلو الأخرى ويلهَوْنَ به، وكانت هيذر بيل هي الأكثر عبثًا

---

* أليس مونرو: كاتبة كندية، (ولدت في ١٠ يوليو عام ١٩٣١) حائزة على جائزة نوبل في الأدب في أكتوبر ٢٠١٣. اعتبرت لجنة منح الجائزة أن القصص القصيرة التي تؤلفها الكاتبة هي من بين الأفضل في العالم حالياً. وُصِفتْ أعمالُها بأنها أحدثتْ ثورةً في بِنْية القصة القصيرة. سبق لها الحصول على جائزة البوكر للآداب في عام ٢٠٠٩. وعلى مدار حياتها الأدبية الحافلة، حازَتْ مونرو العديدَ من الجوائز؛ وتتميَّز قصص مونرو بأنها تستكشف الجوانبَ الإنسانية المعقَّدة بأسلوبٍ بسيط. وللكاتبة قرابة ال٢٣ مجموعة قصصية، ومن أشهر قصصها: "حلم أمي"، و"أقمار المشتري"، و"العاشق المسافر"، و"الحياة العزيزة"، ومن هذه المجموعة اخترنا قصة "أسرار معلنة".

وجرأةً؛ حيث أمسكت بالخرطوم ورشَّتِ الأخريات بالمياه في كل الأماكن الحساسة.

قالت فرانسيس: «سيحاولن تفسير الأمر بأنها بريئة مسكينة، لكن الحقائق تفيد بخلاف ذلك تمامًا. كان من الممكن أن يكون الأمر برمته خطةً مُسبَقة خطَّطت لها للقاء شخصٍ ما؛ أعني رجلًا ما.» وردت مورين: «أعتقد أن ذلك أمرٌ مستبعَد تماما.»

الشلالات الواقعة على نهر بيريجرين هي مجرد مياه تسقط على سلسلة من الصخور الجيرية التي لم يتجاوز ارتفاعُ أيٍّ منها ست أو سبع أقدام. ثمة بقعة رائعة للاستحمام حيث يستطيع المرءُ أن يقف وراء ستار من الماء يندفع بقوة، ومن حوله في منطقة الأحجار الجيرية ثمة حمَّامات ذات حوافَّ ملساء، ولا تزيد على أحواض الاستحمام من حيث الحجم، حُوصِر فيها الماءُ وصار دافئًا. وإنْ شئتَ أن تغرق فيها، فلا بد أن تكون حريصًا كل الحرص على الغرق. لكنهن بحثن هناك وجرين برشاقة حول الصخور العارية، وصرخْنَ وبللنَ أنفسهن بالماء، وخضنَ الستار المائي، حتى نادت عليهن الآنسة جونستون وأمرتهن بالعودة.

قالت فرانسيس: «سبعٌ فقط هن اللائي استطاعت أن تجمعهن، وكلٌّ منهن لسببٍ محدد: روبن ساندز هي ابنة الطبيب، ولوسيل تشامبرز ابنة القَس، لا يمكنهما الخروج من هذه العباءة؛ بلدة آل ترويل، يسعدهما المشاركة في أي شيء. وجيني بوس العابثة الرشيقة وماري كاي تسكن إلى جوار الآنسة جونستون؛ كفاها تلك الجيرة. وهيذر بيل وافدة جديدة على

المدينة، وأمها سافرت خلال عطلة نهاية الأسبوع؛ لقد استغلت الفرصة وقرَّرت أن تنطلق في رحلة استكشافية خاصة بها.»

* * *

مر يوم بأكمله على اختفاء هيذر بيل، وكانت ماري جونستون، وهي في أوائل الستينيات من عمرها، تقود هذه الرحلة منذ سنوات، من قبل الحرب، وجرى العُرْف على أن تشارك ٢٤ فتاة تقريبًا في تلك الرحلة على طريق كاونتي صباح السبت في شهر يونيو. كُنَّ يرتدين جميعًا شورتات زرقاء داكنة، وبلوزاتٍ بيضاء، وأوشحةً حمراء حول أعناقهن، وكانت مورين من بينهن منذ عشرين سنة تقريبًا. وكانت الآنسة جونستون دومًا تحثُّهم على إنشاد الأغنية نفسها:

"تقديرًا لجمال الأرض

وجمال السماوات

والحُبِّ الذي يُحلِّق فوقنا منذ الميلاد

ويحيط بنا "...

ويتسلَّل إلى مسامعك طنينٌ من كلمات مصاحبة للأنشودة بحذرٍ مَشُوبٍ بالإصرار:

تقديرًا لمشهد مَقْعَدة الآنسة جونستون وهي تتمايل على طول طريق كاونتي نحن الحمقاوات اللائي ينشدن هذه الأنشودة أَلَا تبدو أشبه بضفدع الطين؟

هل تذكر إحداهن هذه الكلمات الآن؟ اللائي بقين في البلدة أصبحن أمهاتٍ ولديهن فتيات في سن مناسبة للخروج في هذه الرحلة الخلوية، وفتيات أكبر سنًّا أيضًا وكانت تصيبهن النوبات التي تصيب الأمهات حيال استخدام ألفاظ نابية. إنجاب الأطفال يُغيِّر من طباع النساء؛ فهو يعطيك نصيبَك الذي لا غنى عنه من النُّضْج، فيمكن حينئذٍ استبعاد أجزاءٍ قديمة من حياتك والتخلِّي عنها، ولا يكون للعمل والزواج الأثر نفسه؛ كلُّ ما في الأمر أنهما يجعلان المرءَ يتصرَّف وكأنَّ ثمة أشياءَ طواها النسيان.

لم يكن لدى مورين أطفال. كانت مورين بصحبة فرانسيس وول يحتسيان القهوة ويدخنان حول طاولة الإفطار التي وُضِعت في غرفةٍ تحتوي على خزانة طعام قديمة ودواليب عالية ذات واجهة زجاجية. كان هذا بيت مورين في مدينة كارستيرز عام ١٩٦٥.

مضى على عيش مورين في ذلك البيت ثماني سنوات، لكنها لا تزال تشعر وكأنها تتحرَّك فيه من جزءٍ تشعر فيه بالألفة إلى جزءٍ آخَر. جهَّزَتْ هذه الزاوية بحيث يتاح مكانٌ لتناوُل الطعام بخلاف طاولة غرفة الطعام، وكانت قد وضعت أقمشة قطنية جديدة في الغرفة المشمسة لتغيير الستائر.

استغرَقَ الأمرُ منها وقتًا طويلًا لإقناع زوجها بالتعديلات الجديدة؛ فالغرف الأمامية كانت مملوءةً عن آخِرها بأثاث قَيِّم ثقيل الوزن من خشب البلوط والجوز، وكانت الستائر مصنوعة من قماش ثقيل مطرَّز باللون الأخضر ولون التوت البري، كما هي الحال في الفنادق الفاخرة؛ فليس بمقدور المرءِ أن يبدأ في تغيير أي شيء هناك.

تعمل فرانسيس عند مورين بالبيت، لكنها لم تكن خادمة؛ كانتا بنات عم، ولو أن فرانسيس كانت تكبر مورين بجيل كامل. كانت فرانسيس تعمل في هذا البيت قبل أن تطأه مورين بفترة طويلة، كانت تعمل لدى الزوجة الأولى، وأحيانًا ما كانت تنادي مورين «سيدتي» على سبيل السخرية، بنبرةٍ فيها من الودِّ ما فيها من النفور. "كَمْ دفعتِ لقاء هذا الفستان، سيدتي؟ أوه، لا بد أن البائع خدعك".

وكانت تقول لمورين إنها تعاني ترهُّلًا في منطقة الأرداف، وأن طريقة تصفيف شعرها والصبغة التي تستخدمها لم تكونا تناسبانها؛ كل هذا على الرغم من أن فرانسيس نفسها كانت امرأةً سمينة غزا الشيبُ شعرها، كانت مورين تتمتع بهيئة مهيبة. ولم تكن الكفاءة تنقصها؛ فقد كانت تدير مكتب المحاماة الخاص بزوجها قبل أن «تتأهَّل» (على حدِّ تعبيرهما) لإدارة بيته وتدبير شئونه. كانت تحدِّث نفسها أحيانًا بأنه ينبغي عليها أن تحظى بقدرٍ أكبر من الاحترام من جانب فرانسيس، لكنها كانت بحاجةٍ لِمَنْ تمزح وتتشاجر معه بالبيت. لم يكن لها أن تثرثر نظرًا لحساسية موقف زوجها، وهي لم تعتقد أن الثرثرة من طبيعتها على أية حال، لكنها تسامحت مع فيض التعليقات الخبيثة والتخمينات القاسية والواثقة التي صدرت من فرانسيس.

(على سبيل المثال: ما قالته فرانسيس عن والدة هيذر بيل، وعن ماري جونستون والرحلة الخلوية بصفة عامة. حسبت فرانسيس أنها خبيرةٌ في هذا المجال لأن ماري كاي تريفيليان كانت حفيدتها).

كان من الصعب أن يأتي أحدٌ على ذِكْر ماري جونستون في مدينة

كارستيرز دون أن يُلحِق بذِكْرها صفةَ «رائعة»؛ فقد أُصِيبتْ بمرض شلل الأطفال، فصارت ساقاها قصيرتين، وقوامها مكتنزًا، وكتفاها مائلتين، وعنقها متقوّسًا بقدر طفيف؛ فمال رأسُها الكبير بعض الشيء إلى جانب واحد. درست ماري إدارة الحسابات، وحصلت على وظيفة في مصنع، وكرَّست أوقات فراغها للفتيات، وغالبًا ما كانت تقول إنها لم تلتَقِ فتياتٍ سيئات قطُّ، بل بعض الفتيات كُنَّ مرتبكات.

وكانت مورين كلما التقت ماري جونستون صدفة يخفق قلبها من فرط الحزن. كانت ماري تلقاها أولًا بابتسامة فاحصة حيث تحملق في عينيها، وتعلن سعادتها بحالة الجو أيًّا كانت سواء أكانت عاصفةً أم باردة أم مشمسة أم مطيرة ثم بطرح السؤال المُغلَّف بضحكة عذبة: «كيف حالك إذن سيدة ستيفنز؟!» كانت ماري جونستون حريصة كل الحرص على تلقيبها بالسيدة ستيفنز، لكنها كانت تلفظه وكأنه عنوان مسرحية، وكانت تُحدِّث نفسها طوال الوقت بأنها مورين كولتر فحسب. (كان آل كولتر شأنهم شأن آل ترويل تمامًا الذين علَّقَتْ عليهم فرانسيس واصفةً إيَّاهم بأنهم مَعْلَمٌ من معالم المدينة لا أكثر ولا أقل).

سألتها ماري قائلةً: «ما الأشياءُ المثيرة التي قمتِ بها مؤخرًا، سيدة ستيفنز؟» حينئذٍ شعرت مورين وكأن الأضواء سُلِّطت عليها، ولم تستطع أن تفعل شيئًا حيال ذلك، وكأنها في مواجهةِ تحدٍّ ما، وكان الأمر يتعلَّق بزواجها المبني على الحظ، وقوامِها الممشوق الغضّ وبشرتها وردية اللون، وشعرِها الكستنائي، والملابسِ التي أنفقت أموالًا طائلة ووقتًا طويلًا عليها؛ وكأنها يجب أن تكون مَدِينةً لماري جونستون بشيء ما؛ تعويض لا يمكن تحديده أبدًا، أو

كأن ماري جونستون بإمكانها أن ترى نوعًا من القصور أكبر بكثير ممَّا تواجهه مورين نفسها. لم تعبأ فرانسيس بماري جونستون هي الأخرى بنفس الطريقة البسيطة المحضة التي لا تعبأ بها بأي شخصٍ يبالغ في تقديره لذاته.

* * *

صحبتهم الآنسة جونستون في رحلةِ تسلُّق لمسافة نصف ميل قبل الإفطار كعادتها دومًا لارتقاء الصخرة؛ كتلة الحجر الجيري التي برزت أعلى نهر بيريجرين، وكانت شيئًا نادرًا جدًّا في البلدة، لدرجة أنها لم يُطلَق عليها سوى «الصخرة».

صباح الأحد، يتعيَّن القيام برحلة التسلُّق هذه مهما كان المرء مرهقا من فرط مغالَبة النعاس طوال الليل، وشاعرًا بشبه غثيان من فرط تدخين السجائر المُهَرَّبَة، ومرتعِشًا أيضًا؛ لأن الشمس لم تكن تتخلل الغابات في تلك الساعة من النهار. كاد الطريق ألا يكون طريقا؛ إذ كان يتعيَّن على المرء أن يتسلَّق جذوع أشجارٍ متعفنة، ويخوض عبر السراخس.

"نسيتُ سترتي. هكذا قالت هيذر عندما قطعَا نصف الطريق لأعلى. هل يمكنني العودة لجلبها؟"، في الأيام الخوالي، كانت إجابة الآنسة جونستون على الأرجح هي النفي. "أسرعي الخُطى وستشعرين بالدفء من دونه". هكذا كانت تقول. لا بد أنها شعرت بعدم الارتياح هذه المرة؛ نظرًا لأن شعبية رحلات التسلُّق كانت تتضاءل، فألقت باللائمة على التليفزيون والأمهات العاملات والتكاسُل في البيت. أجابت لها طلبها. "حسنٌ، ولكن أَسْرِعي. أَسْرِعي والحقي بنا".

وهو ما لم تفعله هيذر قطُّ. عند الصخرة، استمتعن بالمنظر (تذكَّرَتْ مورين بحثها عن موانع الحمل بين زجاجات الجعة ولفافات الحلوى) ولم تلحق بهن هيذر، وفي طريق عودتهن لم يقابِلْنَها. لم تكن في الخيمة الكبيرة ولا في الصغيرة؛ حيث كانت الآنسة جونستون تنام، أو حتى بين الخيام. لم تكن في أي ملاذٍ أو مَخْبَأ من مخابئ العشَّاق بين أشجار الأرز المحيطة بأرض المعسكر. اختصرت الآنسة جونستون عملية البحث. قالت: «الفطائر المُحلَّاة والقهوة. تُرَى هل ستقاوِم الفتاة العابثة رائحةَ الفطائر والقهوة فتخرج من مَخْبَئِها؟»

تعيَّن عليهن الجلوس وتناوُل الطعام، بعد أن تلت الآنسة جونستون صلاتها شاكرةً الرب على كل شيء في الغابة وفي البيت، وبينما شرعن في تناوُل الطعام، صاحت الآنسة جونستون: «يا للطعم اللذيذ!» وتساءلت بأعلى صوتها: «أَلَا يفتح الهواءُ المنعش شهيتنا؟ أليست هذه ألذَّ فطائر مُحلَّاة تتناولنها؟ من الأفضل أن تسرع هيذر وإلا فلن يكون لها نصيبٌ من الفطائر. هيذر؟ هل تسمعينني؟ لن يتبقَّى لكِ شيء!»

فور أن انتهوا، تساءلت روبن ساندز إن كان بإمكانهن الذهاب الآن للبحث عن هيذر؟ قالت الآنسة جونستون: «الصحون أولًا يا سيدتي، حتى لو لم تكوني معتادةً على غسل الصحون بالبيت.»

كادت روبن أن تجهش بالبكاء؛ لم يُكلمها أحدٌ من قبلُ بهذه الطريقة. بعد أن انتهين من غسل الصحون، سمحت لهن الآنسة جونستون بالرحيل، وحينئذٍ عُدْنَ مرةً أخرى إلى الشلالات، لكن سرعان ما استدعَتْهن جميعًا

وأمرتهنَّ بالجلوس على شكل نصف دائرة مبللاتٍ كما هنَّ، وجلست هي القرفصاء أمامهن، وصاحت: «مرحبًا بأي شخص يختبئ هنا ويحاول أن يمارس علينا خدعةً! فَلْتظهر الآن ولن نسألكَ عن شيء! وإلا فسيتعيَّن علينا أن نمضي قدمًا من دونك!» وبعدها ألقت على مسامعهن عظتها التي عادةً ما تلقيها صباح الأحد خلال رحلة التسلُّق دون تردُّد أو قلق. ظلت تسهب في عظتها وتطرح بين الحين والآخر بعضَ الأسئلة لتتأكد من إنصاتهن إليها. جفَّفَتْ حرارةُ الشمس سراويلهن القصيرة، ولم ترجع هيذر بيل. لم تخرج من بين الأشجار، وما برحت الآنسة جونستون تتكلم. لم تتركهن حتى وصل السيد ترويل بشاحنته إلى المعسكر مُحمَّلًا بالآيس كريم للغداء.

لم تُعطِهنَّ الإذن حينئذٍ، لكنهن انطلقن من تلقاء أنفسهن. قفزْنَ وجرينَ باتجاه الشاحنة، وأخذْنَ يقصصن عليه ما حدث. قفز جوبيتر؛ الكلب الخاص بترويل، على الجزء الخلفي للشاحنة، ولفَّت إيفا ترويل ذراعَيْها حوله وطفقت تنوح وكأنه هو الذي ضلَّ الطريق.

نهضت الآنسة جونستون واتجهت نحو الشاحنة، ونادت على السيد ترويل بصوتٍ عالٍ يعلو على الضجيج الذي أحدثَتْه الفتيات. «واحدة من الفتيات قرَّرَتْ أن تختفي!»

خرجت فِرَق البحث، وأغلَقَ مصنع آل دُودْ أبوابه بحيث يستطيع كلُّ مَن يود المشاركة في البحث أن يشارك، وشاركت الكلاب أيضًا في البحث. دار حوارٌ عن البحث في النهر باتجاه سريانه من الشلالات.

وعندما قصد الشرطيُّ والدةَ هيذر بيل ليخبرها باختفاء ابنتها، وجدها

قد رجعت توًّا من عطلة نهاية الأسبوع مرتدية لباسًا صيفيًّا خفيفًا كاشفًا للظهر، وحذاءً عالي الكعبين. قالت له: «حسنٌ، من الأفضل أن تجدوها؛ فهذه مهمتكم.» كانت تعمل ممرضة بالمستشفى. قالت فرانسيس: «إنها إما مطلقة وإما لم تتزوَّج من قبلُ قطُّ. الفرد في خدمة الكل والكل في خدمة الفرد؛ ذلك هو مبدؤها.»

* * *

كان زوج مورين يناديها، فأسرعت إلى الغرفة المُشمِسة. بعد السكتة الدماغية التي أُصِيبَ بها منذ عامين وهو في التاسعة والستين من عمره، ترك مهنةَ المحاماة، لكنه ما زال منكبًّا على بعض الرسائل التي يتعيَّن عليه كتابتها، وبعض الأعمال المُعلَّقة لوكلاء قدامى لم يعتادوا التعامُل مع محامٍ غيره. طبعت مورين كل مراسلاته، ومدَّت له يد المساعدة كلَّ يوم فيما سمَّاه مهامَّه.

سألها: «ماذا تفعلين هناك؟» كانت كلماته تخرج منه أحيانًا بلا وضوح؛ لذا كان يتعيَّن عليها ملازمته لتفسِّر كلامَه لِمَنْ لا يعرفونه جيدًا. وكلما اختلى بها، لم يكن يبذل جهدًا كبيرًا لتنقيح ألفاظه، وكانت نبرته متبرمة وفيها نَزَق.

أجابته مورين: كنت أتكلم مع فرانسيس.

_ في أي موضوع؟

_ موضوعات عامة

_ شيء جيد

أطالَ مقاطع الكلمة بكآبة وهو ينطقها وكأنه يقول إنه على دراية

بمضمون حوارهما، وإنه لا يعبأ به؛ النميمة والشائعات، والاستمتاع دون مبالاة بما تُحدِثه كوارثُ الآخرين من إثارة.

لم ينخرط في حواراتٍ ممتدة، سواء في هذه المرحلة أم عندما كان باستطاعته أن يتحدَّث بطلاقة، حتى تعنيفه كان مقتضبًا؛ حيث يعوّل على نبرة صوته وتلميحاته. بَدَا وكأنه يدعو إلى مجموعة من المبادئ والقواعد المعلومة للناس جميعًا، بدا أنه ينتابه شعورٌ بالحَرَج بعض الشيء لكل المعنِيّين بالأمر كلما اضطرته الظروفُ أن يتحدَّث عن الآخرين، وبَدَا مهيبًا أيضًا. وكانت انتقاداته فعَّالةً على نحوٍ مذهل.

كان الناسُ في كارستيرز يتحلَّلون تدريجيًّا من عادة مناداة المحامين بالمحامي فلان الفلاني، تمامًا كما نادي الأطباء بألقابهم. لم يَعُدْ أحدٌ في المدينة ينادي محاميًا بلقبه المهني، لكنهم دومًا يشيرون إلى زوجِ مورين بالمحامي ستيفنز، مورين نفسها كانت تفكِّر فيه من هذا المنطلق أيضًا، ولو أنها كانت تدعوه «ألفين».

كان يرتدي كلَّ يوم نفس ملابس الخروج التي اعتاد أن يرتديها عند الذهاب إلى مكتبه، بَذلة رمادية أو بُنية اللون من ثلاث قِطَع، لكن ملابسه، على الرغم من تكلفتها الباهظة، لا تناسبه تمامًا، أو تمتد بحيث تغطي جسمه الطويل المترهل، وبدا أنها لم تكن تخلو قطُّ من آثارٍ ولو طفيفةً لرمادِ السجائر وفتات الطعام. وكان رأسه محنيًّا لأسفل، وشحومُه متدلية من فرط استغراقه وانهماكه، وتعبيرات وجهه تنمُّ عن الدهاء وشرود الذهن، وراقَ ذلك للناس؛ فهم يحبون هيئته الرثة بعض الشيء، وشروده الذي يخرج منه فجأة بتفصيلةٍ مخيفة.

يقولون إنه ضليع بالقانون، وكلُّ كتب القانون مطبوعة في ذاكرته. لم

تهزَّ سكتته الدماغية ثقتهم به، ولم تُغيِّر من مظهره أو سلوكه كثيرًا؛ بل أنها عزَّزت من تلك الصفات. آمَنَ الجميع بأنه كان من الممكن أن يصبح قاضيًا لو كان قد استغلَّ الفرص التي سَنَحتْ له. كان يمكن أن يصبح عضوًا بمجلس الشيوخ، لكنه كان أشرف من ذلك بكثير؛ لم يكن يعرف كيف يتزلَّف. كان رجلًا فريدًا من نوعه.

جلست مورين على مسند القدم على مقربة منه لتكتب بطريقة الاختزال. كان يسميها في المكتب، «الجوهرة»؛ لأنها كانت ذكية ويعتمد عليها، والواقع أنها كانت بارعة في وضع مسوَّدات للمستندات وكتابة الرسائل بمفردها. وحتى في البيت، كانت زوجته وأبناؤه هيلينا وجوردون ينادونها بالاسم نفسه. وما زالت هيلينا وجوردون يستخدمان الاسم نفسه ولو أنهما كبرا ويعيشان بعيدًا الآن. هيلينا كانت تستخدمه بعطف واستفزاز، وأما جوردون فبلطف مشوب بالإطراء. كانت هيلينا عزباء مضطربة نادرًا ما تزور البيت، وكثيرًا ما تدخل في مجادلات كلما جاءت، أما جوردون فكان معلمًا بكلية عسكرية، وكان يصطحب زوجته وأولاده لزيارة كارستيرز مستعرضًا المكان وأباه ومورين وفضائلهم الراسخة.

ما زال بإمكان مورين أن تستمتع بكونها «الجوهرة»، أو على الأقل وجدت تلك المكانة مريحةً لها. بعض أفكارها كانت تشرد من تلقاء نفسها. كانت تفكِّر في الطريقة التي بدأت بها المغامرة الليلية الطويلة بالمعسكر في ظلِّ غطيطِ الآنسة جونستون المروع، والغاية منها مغالبة النوم حتى الفجر، وفي كل الاستراتيجيات والفقرات الترفيهية التي كان يُعَوَّل عليها لتحقيق هذه الغاية، ولو أنها لم تسمع قطُّ أنها آتت ثمارها.

الفتياتُ لَعِبْنَ بالوَرَق، وتبادلن النكات، ودخَّنَّ السجائر، وفي منتصف الليل تقريبًا بدأْنَ لعبة «الحقيقة أم التحدي»، ومن بين التحديات التي اقترحنها: اخلعي الجزء العلوي من منامتك واكشفي عن صدرك، كلي عقب السيجارة، ابتلعي الأوساخ، ضعي رأسك في سطل الماء وحاولي العد حتى مائة، اذهبي وتبولي أمام خيمة الآنسة جونستون، ومن بين الأسئلة التي استدعت قول الحقيقة: هل تكرهين أمك؟ أباك؟ أختك؟ أخاك؟ كَمْ عدد الأعضاء التناسلية الذكورية التي رأيتها في حياتك؟ ولِمَنْ كانت؟ هل كذبتِ أو سرقتِ أو مسستِ شيئًا ميتًا في حياتك من قبلُ؟ وتذكَّرَتْ أيضًا مورين الإحساسَ بالغثيان والدوار الناجمَيْنِ عن تدخين عدد كبير من السجائر بسرعة مبالغ فيها، وكذلك رائحة الدخان تحت القماش السميك الذي تشبَّعَ بشمس النهار، ورائحة الفتيات اللائي سبحن لساعاتٍ في النهر، وجرين واختبأن بين عيدان القصب على طول ضفتي النهر، وحرقن العلقات ليُبْعِدْنَها عن أرجلهن.

تذكرتْ كَمْ كانت مزعجة آنذاك، كَمْ كانت صاخبة وميَّالة إلى قبول التحديات! قبل أن تلتحق بالمدرسة الثانوية تحديدًا، تمكَّنَتْ منها حالةٌ من الطيش، سواء أكانت حقيقية أم مزيَّفة أم وسطًا بين الحقيقة والزيف، وسرعان ما تبدَّدت تلك الحالة، واختفى جسدُها الجريء داخل هذا الجسد الكبير، وأمست فتاةً مولعة بالدراسة، خجولة، يتورَّد وجهها خجلًا. اكتسبت الخِصالَ التي سيرَاها زوجُ المستقبل ويقدِّرها كلَّ التقدير عندما يتقدَّم لطلب يدها.

أتحدَّاكِ أن «تهربي». هل كان ذلك ممكنًا؟ أحيانًا ما يهبط الإلهام على الفتيات عندما يُرِدن استمرار المخاطر دون توقُّف، فتتمنى الواحدة منهن لو

كانت بطلةً مهما كلَّفها الأمر. يضحكن لنكتة فترى لديهن رغبة في حملها على أكثر مما تحتمل، تجد لديهن رغبة في أن يكنَّ جريئاتٍ ومدمِّرات. كان هذا الأمل الضائع لدى الفتيات.

من مَسند القدم المغطَّى بنسيج قطني مطرَّز إلى جوار زوجها، تطلَّعَتْ إلى أشجار الزان النحاسي، فتجلَّى لها عَبرها، ليس العُشب المشمس، بل الأشجار الجامحة بطول النهر؛ أشجار الأَرْز الوارفة، وأشجار البلوط ذات الأوراق النحيلة، وشجر الحور بأوراقه اللامعة. بدت الأشجار جدارًا مخلخلًا نوعًا ما ببواباتٍ خفية، ودروب مستترة خلفه؛ حيث كانت تمضي حيواناتٌ، وبشر منعزلون أحيانًا، أصبحوا مختلفين عمَّا كانوا عليه بالخارج، ومُحمَّلين بمسئولياتٍ وقناعاتٍ ونوايا مختلفة. كان بإمكانها أن تتخيَّل فكرة الاختفاء، لكنَّ المرء لا يختفي هكذا وحسب؛ فهناك دومًا شخصٌ آخَر يقطع دربًا يتقاطع مع دربك، وعقله يحفل بخططٍ لك حتى قبل أن يلتقي بك.

عندما قصدَتْ مكتبَ البريد ظُهْرَ ذاك اليوم لإرسال خطابات زوجها، سمعت مورين روايتين جديدتين: ثمة فتاة شقراء شُوهِدت وهي تهمُّ بركوب سيارة سوداء على طريق بلووتر السريع شمالي والي في تمام الواحدة تقريبًا ظُهْر الأحد. ربما كانت تتطفَّل للركوب مع أحد أصحاب السيارات، أو ربما كانت تنتظر سيارة بعينها. كان ذلك على بُعْد ٢٠ ميلًا من الشلالات، وكان الطريق إلى هناك يستغرق سيرًا على الأقدام حوالي خمس ساعاتٍ عبر البلدة. من الممكن القيام بذلك، أو ربما حصلتْ على توصيلة في سيارة أخرى.

لكن بعض الناس مِمَّنْ يعكفون على تنظيف مدافن عائلاتهم في مقابر

الكنيسة المهجورة بالبلدة في الجانب الشمالي الشرقي المليء بالمستنقعات؛ زعموا أنهم سمعوا صرخةً في منتصف النهار. تذكَّروا أنهم تساءلوا عمَّنْ يمكن أن يكون صاحب الصرخة. ليس «ما»، ولكنْ «مَنْ»؟ «مَنْ كان ذلك الشخص؟» ولكنْ لاحقًا، حسبوا أنه ربما كان ثعلبًا.

كانت هناك مواطئ أقدام في بقعة على مقربة من المعسكر، وأعقاب سجائر مطفأة حديثًا متناثِرة في المكان، ولكن علامَ يمكن الاستدلال من ذلك كله؟ فالناسُ كثيرًا ما يتردَّدون على ذلك المكان؛ العشاق، والصبية الذين يدبِّرون مقالب.

صباح الثلاثاء، بينما كانت فرانسيس تُجهِّز الإفطار، وموريين تعين زوجها على ارتداء ملابسه، ثمة مَنْ كان يطرق الباب الأمامي متجاهِلًا الجرس أو غير واثق فيه. لم يكن غريبًا أن يتزاور الناس في تلك الساعة المبكرة من النهار، لكن هذه الزيارات المبكرة كانت تمثِّل صعوبات؛ لأن المحامي ستيفنز كان يجد مشكلةً أكبر في الصباح تتعلَّق بقدرته على الكلام بطلاقة، وعقله أيضًا كان يستغرق بعضَ الوقت كي ينشط.

رأت مورين عبر الزجاج السميك أمام الباب ظلًّا مشوشًا لرجل وامرأة؛ كانا متأنِّقين، على الأقل هكذا كانت المرأة بقبعتها التي تعتمرها. هيئتهما تدل على جدية الأمر الذي جاءا بشأنه، لكن الأمر الجاد بالنسبة إلى الشخص المعنيِّ قد يبدو على أية حال روتينًا مملًّا للآخرين؛ فثمة تهديداتٌ بالقتل بسبب ملكية خزانة ملابس، وصاحب عقار غضب لأن أحدهم اغتصب ستِّ بوصاتٍ من ممره الخاص بالسيارات؛ أحطابٌ مفقودة، وكلابٌ

نابحة، وخطاباتٌ بذيئة؛ كل هذه الأشياء يمكن أن تجعل الناس يطرقون بابهم، فتجد أحدهم يقول: «اذهب واسأل المحامي ستيفنز. عليكَ بالاستفسار عن الوضع القانوني.» وهناك احتمالٌ طفيف أن هذين الطارقين ربما يُروِّجان لأفكار عقائدية.

لم يكونا كذلك. قالت المرأة: «جئنا لمقابلة المحامي.» قالت مورين: «حسنٌ، ما زال الوقت مبكرًا.» لم تتعرَّف عليهما على الفور.

قالت المرأة وقد دلفت إلى الممر الأمامي بطريقةٍ ما بينما تراجعت مورين لتُفسِح لها المجال: «معذرةً، لكن لدينا شيء مهم جدًّا يجب أن نُطلِعه عليه.» هزَّ الرجل رأسه وكأنه يُعرِب عن انزعاجه أو اعتذاره، ومشيرًا إلى أنه لم يكن لديه خيار إلا أن يتبع زوجته.

عبقت الردهة برائحة صابون الحلاقة ومزيل العرق وكولونيا زهيدة الثمن؛ زنبق الوادي. الآن تعرَّفت مورين عليهما.

إنها ماريان هيوبرت. لكنها بَدَتْ مختلفة في ثوبها الأزرق الذي كان ثقيلا بدرجةٍ لا تُحتمَل مع المناخ في هذا الوقت من العام، وقفازَيْها القماشيَّيْن البُنيَّيْن، وقبعتها البُنية المصنوعة من الريش. عادةً ما كانت تظهر في المدينة وهي ترتدي بنطالا أو يبدو وكأنه مصنوع للرجال.

كانت ضخمةَ البنية من عُمْر مورين تقريبًا فقد التحقتَا بالمدرسة الثانوية معًا، كانت ماريان تعوزها اللياقة، لكنها كانت سريعة الحركة مع ذلك، وكان شعرها الرمادي مقصوصًا قصَّة قصيرة؛ مما سمح بظهور الشعر القصير الخشن الذي نما على عنقها، وكان صوتها جَهْوَرِيًّا يصدر عنها أغلب الوقت بنبرةٍ

صاخبة نوعًا ما؛ أما الآن، فقد تراجعتْ حدَّةُ نبرتها.

كان الرجل الذي بصحبتها هو نفسه الذي تزوَّجَتْه منذ وقتٍ ليس ببعيد؛ ربما منذ عامين. كان طويل القامة، صبياني الهيئة، يرتدي سترة رخيصة صفراء باهتة تحتوي على بطانة ضخمة على الكتفين، شعره بُني مثبَّت بمشط مبلل. قال بصوتٍ خافت — ربما بنبرة لم يكن ينوي أن تسمعها زوجته: «معذرة.» بينما صحبتهما مورين إلى غرفة الطعام. لم تكن عيناه عن قُرْب عينَيْ شابٍّ؛ ثمة إجهادٌ وجفاف أو حيرة فيهما. لعله لم يكن على قدرٍ كبير من الذكاء.

تذكَّرت مورين روايةً ما عن أن ماريان تعرَّفت إليه من إعلان؛ كان الإعلان: «امرأةٌ تملك مزرعة ملكيةً خالصة» كان من الممكن أن يكون الإعلان: «سيدة أعمال تملك مزرعة.» وذلك لأن الاسم الآخَر لماريان هيوبرت هو «بائعة المِشَدِّ»؛ فلسنوات طويلة كانت تبيع المِشَدَّات المصنوعة خصوصًا لزبائنها، ولعلَّها ما زالت تبيعها للسيدات القلائل اللائي مازلن يرتدينها. تخيَّلَتْها مورين وهي تأخذ المقاسات وتملي أوامرها كالممرضات، وتتصرَّف بتعالٍ وعلى نحوٍ مُهين، لكنها كانت تعامِل والدَيْها العجوزين بلطفٍ وكرم؛ والديها اللذين أُصِيبا بكلِّ ما يصاب به العجائز من عِلَلٍ. والآن، ثمة روايةٌ جديدة شاعتْ عن زوجها، روايةٌ أقل خبثًا: كان زوجها يقود الحافلة التي تنقل المُسِنِّين إلى جلسة السباحة العلاجية التي يتلقَّوْنها في والي بحمَّام السباحة الداخلي، وهكذا التقَيَا. كانت لدى مورين صورة أخرى له في ذاكرتها أيضًا؛ تذكَّرَتْه وهو يحمل الأب العجوز بين ذراعَيْه إلى مكتب الدكتور ساندز. اندفعت ماريان مُسرِعةً إلى الأمام وحقيبتها تهتزُّ من سرعتها، وكانت على أهبة الاستعداد لفتح الباب.

راحت تخبر فرانسيس عن الإفطار في غرفة الطعام، وتطلب منها إحضارَ المزيد من أقداح القهوة، وبعدها ذهبتْ لتُنْذِر زوجها. قالت: «إنها ماريان هيوبرت، أو هكذا كان اسمُها. وأيًّا كان اسم الرجل الذي تزوَّجت منه.»

قال زوجها بالطريقة نفسها التي يستحضر بها تفاصيل صفقة بيعٍ أو عقد إيجار لم يكن يخطر ببال أحد أنه يعرفه بهذه السهولة: «سليتر، ثيو.»

قالت مورين: «أنت مطَّلِع على مستجدات الأمور أكثر مني.»

سألها عمَّا إذا كان حساءُ الشعير جاهزًا. قال: «تناولي الطعام وأنصتي.»

جلبت فرانسيس حساءَ الشعير، فانكبَّ عليه على الفور. كان حساء الشعير المغطَّى بسخاءٍ بالكريمة والسكر البُني وجبنَه المفضَّلة شتاءً وصيفًا. وعندما جلبت فرانسيس القهوة، حاولت أن تتسكَّع في المكان، بَيْدَ أن ماريان رمقتها بنظرة ثابتة جعلتها تشيح بوجهها وتنطلق إلى المطبخ.

حدَّثَتْ مورين نفسها أن ماريان تستطيع أن تتدبَّر أمرَها أكثر منها شخصيًّا. لم تكن ثمة ميزة واحدة جلية تميِّز ماريان هيوبرت؛ فرأسها كبير، وخداها مترهلان، حتى إن مورين كانت تَحْضُرها صورةُ كلبٍ من نوعٍ ما كلما وقعت عيناها عليها. ليس بالضرورة كلبًا دميمًا؛ فلم يكن وجهُها قبيحًا حقًّا؛ كل ما في الأمر أنه كبير وصارم الملامح، ولكنْ في كل مكان كانت تطؤه ماريان، كما في غرفة طعام مورين الآن، كانت توحي للآخرين بأنها تتمتَّع بحقوق مُطْلَقة، وعلى الآخرين أن يحسبوا لها ألفَ حساب.

كانت قد بالغت في مقدار المساحيق التي وضعتها على وجهها، وربما

كان ذلك سببًا آخَر وراء عدم تعرُّف مورين عليها لأول وهلة. كان تبرُّجُها شاحبًا ومائلًا إلى اللون الوردي، فلم يناسِب بشرتَها الزيتونية اللون وحاجبَيْها الأسودين الكثيفين. فبدت غريبةَ الشكل، وبَدَا أنها وضعت المساحيق مثلما تضع الحُلَّة على جسدها والقبعة على رأسها؛ لتُثبِت أنها قادرة على مسايرة غيرها من النساء؛ حيث كانت تعلم ما هو متوقَّع، ولكن لعلها كانت تريد أن تبدو جميلة فحسب. ربما رأت أن المسحوقَ الباهت العالق بوجنتيها، وأحمرَ الشفاه الوردي الكثيف يُحدِثان تحوُّلًا في هيئتها، ولعلها التفتت إلى زوجها بخجل بعد أن انتهت من تزيُّنها. كادَ يضحك ضحكة مكتومة وهو يُجِيب نيابةً عن زوجته عندما سألَتْها مورين عن كمية السكر التي تفضِّلها في قهوتها؛ إذ قال: «قِطَعًا كبيرة.» كان كثيرًا ما يردِّد «رجاءً، وشكرًا»، قال: «رجاءً. شكرًا جزيلًا لكِ. شكرًا لكِ. نفس الكمية لي. شكرًا لك.»

كانت ماريان تقول: «لم نكن نعرف شيئًا عن تلك الفتاة إلى أن بَدَا أن الجميع يعرفون قصتها؛ أعني أننا لم نكن نعرف، أيضًا، أن ثمة شخصًا مفقودًا أو أيَّ شيء من هذا القبيل. لم نكن نعرف إلى أن وصلنا إلى المدينة أمسِ. أمسِ؟ الإثنين؟ أمسِ كان الإثنين. التبستْ عليَّ الأيام كلها لأنني أتعاطى مسكناتٍ للألم منذ فترة.»

لم تكن ماريان ممَّن يصرِّحون بتعاطيهم حبوبًا وكفى، بل كانت تحدِّد سببَ تعاطيها. قالت: «كنتُ أعاني من بثرة كبيرة وفظيعة على عنقي. هنا، أليس كذلك؟» أدارت رأسها إذ حاولت أن تريهم الضمادة التي تغطِّي البثرة، ثم استطردتْ قائلةً: «كانت تؤلمني كثيرًا، وشعرتُ بصداع أيضًا، وأعتقد أن ثمة علاقة بينهما، فتدهورت حالتي يوم الأحد بشدة، لدرجة أنني أخذت

خِرقة ساخنة ووضعتها على عنقي، وابتلعت قرصين من مسكن الآلام، وذهبتُ للاستلقاء قليلًا. كان زوجي عاطلًا عن العمل ذاك اليوم، لكنه الآن يعمل، كما أن لديه الكثير من الأعمال التي ينجزها في البيت. إنه يعمل بمحطة الطاقة الذرية.»

تساءل المحامي ستيفنز رافعًا عينَيْه عن حسابه: «دوجلاس بوينت؟» ثمة اهتمام أو احترام يُبْدِيه الرجال جميعًا على ذِكْر محطة الطاقة الذرية الجديدة الكائنة في دوجلاس بوينت.

أجابته ماريان: «هذا هو مقر عمله.» شأنها شأن الكثير من نساء الريف ونساء مدينة كارستيرز أيضًا، كانت تفضِّل أن تشير إلى زوجها بالضمير الغائب بدلًا من تسميته باسمه. واكتشفت مورين أنها تفعل الشيء نفسه بضع مراتٍ، لكنها أسقطت هذه العادة من حساباتها دون أن يشير عليها أحدٌ بذلك.

قالت ماريان: «تعيَّنَ عليه أن يُخرِج قوالب الملح للأبقار كي تَلْعَقها، وبعدها عاد وأصلح السياج. ولمَّا كان يتوجَّب عليه أن يقطع مسافةَ نصف ميل تقريبًا، فقد ركِبَ الشاحنة، لكنه ترك كلبنا باوندر. انطلق بالشاحنة من دونه. تركه ليتولَّى الحراسة؛ لأنه كان يعلم أنني ذهبتُ واستلقيت؛ فقد تعاطيتُ قرصين مسكنين للألم، واستغرقتُ في نوم عميق، ثم سمعتُ نباحَ باوندر وأفقْتُ مباشَرةً. كان باوندر ينبح.»

* * *

حينئذٍ نهضت من غفوتها، وارتدت مِبذلها، ونزلت الدَّرَج. كانت

مستلقية بملابسها التحتية فحسب. تطلَّعَتْ من الباب الأمامي على الطريق، ولم يكن ثمة أحدٌ. لم تَرَ باوندر أيضًا، وكان آنذاك قد توقَّفَ عن النباح؛ عادته أنْ يتوقَّف عن النباح إذا كان الزائر معروفًا له، أو إذا كان ثمة عابرُ سبيلٍ يقطع الطريق مارًّا أمام البيت. لكنها كانت لا تزال على حالتها من عدم الرضا. تطلَّعت من نوافذ المطبخ المُطِلَّة على الباحة الجانبية لا على الباحة الخلفية من البيت، فلم تَرَ أحدًا أيضًا.

لم تستطع رؤية الباحة الخلفية من المطبخ؛ فحتى يتسنَّى لها رؤيتها، كان يتعيَّن عليها المرور مباشَرةً إلى ما كانا يُطلِقان عليه المطبخ الخلفي؛ لم يكن سوى غرفة تُوضَع فيها أغراض متنوعة، وكانت أشبه بسقيفة أعلى البيت تُلقَى فيها الأشياء بلا نظامٍ. كانت بها نافذة تطلُّ على الجزء الخلفي من البيت، لكن من الصعوبة بمكانٍ أن يصل المرءُ إلى تلك النافذة أو يتطلَّع من خلالها، بسبب أكوام الصناديق المتراكمة، وليَّات الأريكة القديمة الملقاة هناك. كان على المرء أن يتجه نحو الباب الخلفي مباشَرةً ويفتحه ليرى ما بالخارج. والآن، تناهَى إلى مسامعها صوتُ شيءٍ ما عند ذاك الباب؛ صوتٌ أشبه بصوت مخالب تنبش؛ ربما كان الكلب باوندر، وربما لا.

كان الجو شديدَ الحرارة في ذلك المطبخ الخلفي المُغلَق والمُحتشِد بالخردة، لدرجة أنها كادت لا تقوى على التنفُّس. تصبَّبَ العرقُ منها تحت مبذلها. حدَّثَتْ نفسها أنها على الأقل لم تُصَبْ بالحُمَّى، فهي تتصبَّب عرقًا.

طغى حرصها على أن تتنفس بشكل طبيعي على خوفها ممَّا قد يكون بالخارج؛ لذا فقد فتحت البابَ بقوةٍ على مصراعَيْه. فُتِحَ الباب للخارج

دافعًا الرجل الذي كان مُتَّكِئًا عليه إلى الوراء؛ ترنَّحَ لكنه لم يقع، وتعرَّفَتْ هي عليه؛ السيد سيديكاب من البلدة.

بالطبع تعرَّفَ باوندر عليه؛ لأنه كثيرًا ما كان يمرُّ من أمام البيت، وأحيانًا ما كان يقطع فناء البيت مباشَرةً اختصارًا لطريقه خلال سيره، ولم يعترضَا قطُّ. كان يفعل ذلك لأنه لم يَعُدْ يعرف طريقًا أفضل يقطعه فحسب. لم تصرخ في وجهه قطُّ شأن بعض الناس، بل إنها دَعَتْه للجلوس على الدَّرَج لينال قسطًا من الراحة إنْ كان متعبًا، وقدَّمَتْ له سيجارة. كان يأخذ السيجارة، لكنه لم يكن يقبل دعوتها قطُّ للجلوس على الدَّرَج. كل ما كان يفعله باوندر أنه كان يتشمَّم المكان من حوله ويتزلَّف له. لم يكن باوندر نيِّقًا.

عرفت مورين السيد سيديكاب شأنها شأن جميع الناس. اعتادَ على العمل ضابطًا لنغمات البيانو بمصنع آل دُودْ. كان رجلًا إنجليزيًّا يعلوه الوقار ويميل إلى السخرية، وكانت زوجته امرأة رائعة. كانا يعشقان قراءة الكتب من المكتبة، واشتهرا بحديقتهما، وما يُزرَع فيها من فراولة وورود. وبعدها، منذ سنواتٍ قلائل، بدأت الكوارث تنهال عليهما؛ خضع السيد سيديكاب لعملية جراحية في حنجرته وبعدها عجز عن الكلام، ولم يصدر منه سوى صوتِ أزيز وهمهمة. وكان قد تقاعَدَ بالفعل من عمله بمصنع آل دُودْ؛ حيث أمست لديهم طريقةٌ إلكترونية لضبط نغمات البيانو تتفوَّق على الأذن البشرية في دقتها.

وفجأةً تُوفِّيت زوجته، وبعدها حلَّتْ به سلسلةٌ من التغيُّرات السريعة، فتدهوَرَ حاله من عجوز يعلوه الوقار إلى متشرِّدٍ كالح الوجه مثيرٍ للاشمئزاز

في غضون أشهر؛ لحية متسخة، ولعاب يسيل على ملابسه، ورائحة عَفِنة دخانية تفوح منه، ونظرة ريبة مستديمة في عينيه تتحوَّل أحيانًا إلى نظرة سخط. إذا لم يجد ما يبحث عنه في محل البقالة، أو إذا بدَّلَ أصحابُ محل البقالة أماكنَ الأغراض، كان يطيح بالمعلبات وعلب الحبوب على الأرض عن عمدٍ منه، ولم يَعُدْ محلَّ ترحيبٍ في المقهى، ولم يَعُدْ يقرب المكتبةَ مطلقًا.

كان يُلقِي ببقايا الفطائر وأطباق الطعام على المَمْشَى الأمامي لبيته، فيكسر الأطباق. لم تُرِدْ أيُّ امرأة أن يتندَّر الناس بأن السيد سيديكاب يأنف أن يتناول طعامها، فترَكْنَه وشأنه. أو حتى ربما أثناء القيادة على الطريق، يمكن للمرء أن تقع عيناه عليه واقفًا لا يحرّك ساكنًا في قناة الري، مختفيًا بكامل جسمه تقريبًا بين الأعشاب والحشائش الطويلة بينما تمرُّ السياراتُ من أمامه مُسرِعة، ويُحتمَل أيضًا أن يصادفه المرءُ في بلدةٍ ما على بُعْد أميال من البيت، وحينئذٍ ثمة شيء غريب يحدث؛ كان وجهه يكتسي بمسحةٍ من تعبيراته القديمة، جاهزًا لمفاجأة ودية، فيُلقِي التحية على مَنْ يعيشون في مكانٍ ويلقاهم في مكانٍ آخر. وبدا أنه كان يعقد الآمال على أن تفتح له اللحظة ذراعَيْها، وأن تخترق الكلمات جدارَ العجز، بل ربما انمحت أيضًا كلُّ التغيُّرات التي طرأت عليه، هنا في مكان مختلف قد يسترد صوتَه وزوجتَه واستقرارَه القديم في الحياة.

كان الناسُ ودودين عادةً، وصبورين إلى حدٍّ ما. قالت ماريان إنها لم تكن لتُجبِره على الابتعاد أبدًا. لكنه بدا جامحًا جدًّا هذه المرة، كان رأسه يتمايل للأمام والخلف، وبدا وجهه منتفخًا كرضيع ينوح بصوتٍ عالٍ. قالت له: «ما الخطبُ، سيد سيديكاب؟ ما الذي تحاول أن تقوله لي؟ هل تريد أن

تقول إن اليوم الأحد، وإن السجائر نفدَتْ منك؟»

ظلَّ يهُزُّ رأسه للخلف والأمام، ثم لأعلى ولأسفل، ثم للخلف وللأمام مرةً أخرى. قالت ماريان: «هيا، احزم أمرك الآن.» كلُّ ما قاله هو: «آه، آه!» ووضَعَ كفَّيْه على رأسه فأطاح بقبعته، ثم ابتعد أكثر وطفق يمشي في مسار متعرّجٍ في الساحة بين المضخة وحبل الغسيل، مُصدِرًا الأصوات نفسها: «آه، آه!» التي لم تَسْتَحِلْ إلى كلماتٍ مفهومة قطُّ.

وهنالك دفعت ماريان كرسيها على حين غرَّة لدرجةِ أنه كاد يسقط. وقفت وبدأت تريهم كيف كان السيد سيديكاب يتصرَّف، فترنَّحَتْ وربضَتْ وضربَتْ رأسها بكفَّيْها، ولو أنهما لم يطيحا بقبعتها. هنالك استعرضت هذا المشهد أمام البوفيه، أمام طقم الشاي الفضي الذي أُهدِي للمحامي ستيفنز تقديرًا لسنوات عمله الطويلة في مهنة المحاماة. أمسَكَ زوجها قَدَحَ القهوة بكلتا يديه، وظلَّ يراقبها بعينيه مراعاةً لمشاعرها بكل ما أُوتِي من قوة إرادة. ثمة شيء ظهر على وجهه؛ تقلُّصٌ لا إرادي أو عصبٌ نفرَ في إحدى وجنتيه. كانت تراقبه هي الأخرى على الرغم من تصرُّفاتها الغريبة، وبدا أن نظرتها تُمْلِي عليه أن يتمهَّل وألَّا يحرِّك ساكنًا.

لم يرفع المحامي ستيفنز عينَيْه قطُّ حسبما تجلَّى لمورين. قالت ماريان: «هكذا تصرَّف.» ثم جلستْ مجددًا. هكذا تصرَّفَ، ولأنها كانت تشعر بتوعُّك حينئذٍ، خطر لها أنه ربما يعاني من ألمٍ ما. «سيد سيديكاب، هل تحاول أن تخبرني أن رأسك يؤلمك؟ هل تريد أن أُحضِر لك قرصًا مسكِّنًا؟ هل تريد أن أصحبك إلى الطبيب؟»

لم يُجِبْها ولم يتوقَّف لأجلها، بل واصَلَ كلماته: «آه، آه!»

أثناء تخبُّطه في أرجاء المكان، وجَدَ نفسه عند المضخة. المياه الجارية تصل إلى البيت الآن، لكنهما كانا يستعملان المضخة خارج البيت، ويضعان لباوندر الطعامَ إلى جوارها، وعندما أدرك سيديكاب ماهيتها انشغل بها، وأخذ يحرّك ذراع المضخة لأعلى ولأسفل بسرعة جنونية. لم يكن ثمة كأس يشرب منها كالعادة، ولكن فور انبثاق الماء وضع رأسَه تحت المضخة. تدفَّقَ الماء ووضع رأسه تحتها. ظل يضخ ويغمر نفسه بالماء تاركًا إياه يتدفَّق على رأسه ووجهه وكتفَيْه وصدره دون أن يتوقَّف عن إصدار أصواتٍ كلما أمكنه ذلك. شعر باوندر بالحماس وشرعَ يجري في المكان ويصطدم به متعاطفًا معه بنباحه وأنينه. صرخت ماريان أنْ كفاكما! دَعَا هذه المضخةَ! دعاها واهْدَآ!

رضخ لها باوندر وحده، أما سيديكاب فظلَّ على ما هو عليه حتى أغرق نفسه وحُجِبت رؤيته مؤقتًا من شدة المياه، وحينئذٍ تعذَّر عليه أن يجد ذراع المضخة. بعدها توقَّف. رفع إحدى ذراعَيْه لأعلى وأشار باتجاه الغابة والنهر؛ كان يشير بهذا الاتجاه ويُصدِر الأصوات المزعجة نفسها. آنذاك لم يكن كل ما يفعله منطقيًّا بالنسبة إليها، ولم تفكِّر في الأمر إلا لاحقًا. بعدها هدأ تمامًا، وجلس فحسب على غطاء البئر مبلَّلًا بالكامل وجسده يرتعد ويداه على رأسه.

حدَّثَتْ نفسها بأن الأمر ربما كان بسيطًا على أية حال؛ لعلَّه يتذمَّر لأنه لا يوجد كأس تحت المضخة. إذا كان مرادك كأس فسأذهب وأجلبها لك. لا حاجةَ لأن تتصرَّف كالأطفال. لا تبرح مكانك، سأذهب وآتي لك

بكأس. عادت إلى المطبخ وأحضرت كأسًا. خطرت لها فكرةٌ أخرى. جهَّزَتْ له طبقًا من المكسرات الممزوجة بالزبد والمربى. كانت هذه الوجبة المُفضَّلة لدى الأطفال، لكن الكبار يعشقونها أيضًا؛ هكذا قال أبوَاها.

رجعت إلى الباب، ودفعته ويداها مشغولتان بالوجبة التي جهَّزَتْها، لكن لم تجد له أثرًا؛ لم يكن في الساحة سوى باوندر الذي بدا على وجهه التعبير نفسه كلما جعل من نفسه أضحوكة. إلى أين ذهب يا باوندر؟ في أي اتجاه ذهب؟

كان باوندر يشعر بالخجل والضجر، ولم يُبْدِ أي ردة فعل؛ جُلُّ ما فعله أنِ انسلَّ إلى مكانه المعتاد تحت ظلة البيت في الوحل إلى جوار الأساسات.

سيد سيديكاب، تعالَ وانظر ما جلبتُ لك!

خيَّم الصمت على المكان، وكان رأسها يؤلمها بشدة. بدأت تتناول المكسرات التي أعدتها، لكن لم يكن يجب أن تتناولها؛ فبعد حفنتين شعرت بالغثيان وبرغبة في التقيُّؤ. تعاطت قرصين آخَرين، وصعدت إلى الطابق العلوي. النوافذ مفتوحة والستائر منسدلة. تمنَّتْ أن لو كانت اشترتْ مروحةً خلال فترة التخفيضات بمحل كاناديان تاير، لكنها نامت دون مروحة، وعندما استيقظت كان الظلام قد حلَّ تقريبًا. تناهَى إلى مسامعها صوتُ جزَّازة العشب؛ لا بد أن زوجها يُقلِّم العشب بجانب البيت. نزلت إلى المطبخ ورأت أنه قطَعَ بعض ثمار البطاطس الباردة، وسلَقَ بيضةً، وأخرَجَ البصل الأخضر ليصنع سلاطة. لم يكن شأن غيره من الرجال الميئوس منهم، الذين ينتظرون زوجاتهم السقيمات لينهضن من السرير ويجهِّزْنَ لهم وجبةً. حاولتْ

أن تتناول السلاطة، لكنها لم تستطع. ستتناول قرصًا آخَر، وتصعد الدَّرَج، وتُلْقِي ببدنها على السرير وتنعزل عن العالم حتى الصباح.

حينئذٍ قال زوجها إنها لا بد أن تُعرَض على الطبيب. اتصل بربِّ عمله وقال إنه لا بد أن يصحب زوجته إلى الطبيب. قالتماريان ماذا لو غَلَتْ إبرةً فيحقنها هو بها؟ لكنه لم يكن ليتحمَّل إيلامها، وعلى أية حال كان يخشى ألَّا تسير الأمور على ما يرام. ركبا الشاحنة، وقصدا الطبيب ساندز. كان الطبيب بالخارج، فاضطرَّا لانتظاره. غيرهما ممَّنْ كانوا بانتظار الطبيب أطلعوهما على الأخبار. ذُهِلَ الجميع لأنهما لا يعرفان. لكنهما لم يشغِّلا المذياع. كانت هي التي تشغِّله دومًا، لكنها لم تستطع أن تتحمَّل الضجيج وهي سقيمة هكذا، ولم يلاحظا أيَّ حشد للناس في طريقهما أو أي شيء يسترعي الانتباه.

عالَجَ د. ساندز البثرةَ دون أن يحقنها بأي إبر؛ كان أسلوبُ تعامُله مع البثرات يتمثَّل في ضربها ضربة سريعة قوية على قمتها في الوقت الذي يظن فيه المريض أنه يفحصها فحسب. قال: «ها قد انتهينا! هذه الطريقة أسهل من استخدام الإبر، وليست مؤلمة جدًّا في المجمل؛ لأنني لم أمهلك كثيرًا، فوفَّرْتُ عليكِ التوتُّر.» نظَّفَ مكان البثرة ووضع ضمادة عليها، وقال إنها سرعان ما ستشعر بتحسُّن.

وبالفعل شعرت بتحسُّن، لكنها كانت تشعر بالنعاس. كانت تشعر بأنها عديمة الجدوى ومشوشة جدًّا، لدرجة أنها خلدت إلى النوم حتى عاد زوجها في الرابعة، تقريبًا، حامِلًا قَدَحًا من الشاي. حينئذٍ تذكَّرَتِ الفتيات اللائي رافقْنَ الآنسة جونستون صباح السبت وطلبن شرابًا. كانت لديها كميات

كبيرة من مشروب كوكاكولا، فأهدتهن إياه في كئوس مزخرفة بالأزهار مع مكعبات الثلج. لم تطلب الآنسة جونستون سوى الماء. تركهن يعبثْنَ بالخرطوم، فأخذْنَ يقفزْنَ، وأخذت كل واحدة منهن ترش الأخريات بالماء، وأمضين وقتًا ممتعًا. كنَّ يحاولن تفادي سيل الماء فجَنحن إلى الجنون بعض الشيء كلما غفلت عنهن الآنسة جونستون. كان عليه فعليًّا أن ينتزع خرطوم المياه من بين أيديهن، ويرشهنَّ بالماء ليُحْسِنَّ التصرُّف ويتأدَّبْنَ.

حاولت أن تتذكَّر أي فتاة كانتْ تلك الفتاة. كانت تعرف ابنة القَس وابنة د. ساندز وبنات آل ترويل؛ حيث كان يسهل التعرف عليهن أينما كُنَّ بأعينهن الشبيهة بأعين الأغنام، ولكن أيُّهن كانت من بين الأخريات؟ تذكَّرت واحدة منهن كانت صاخبة جدًّا؛ حيث كانت تقفز في محاولة لانتزاع الخرطوم حتى بعد أن أبعده عن أيديهن، وأخرى كانت في حالة من النشوة والسعادة، وثالثة فاتنة ونحيلة وشقراء، ولكنْ لعلها كانت تفكِّر في روبن ساندز، كانت روبن شقراء. ليلتَها سألتْ زوجها إن كان يعرف أيُّهن هي، لكنه كان أجهلَ منها؛ فهو لم يعرف الناس الذين يعيشون هنا، ولم يكن يستطيع أن يفرِّق بينهم.

وأخبرته أيضًا بموقف السيد سيديكاب. استرجعتِ المشهدَ كله الآن؛ كَمْ كان منزعجًا! وكيف كان يعبث بالمضخة، والاتجاه الذي كان يشير إليه. استاءتْ من عجزها عن تفسيرِ ما يعنيه. ناقشَا الأمر، وتساءلا عمَّا كان يعنيه، وانشغلَا بتساؤلاتهما كثيرًا لدرجة أنهما بالكاد حصلَا على قسط من النوم. وأخيرًا، قالت له إنها تعرف ما يتعيَّن عليهما فعله؛ يجب أن نذهب ونتحدَّث إلى المحامي ستيفنز. فنهضا وجاءا بأسرع ما يمكن.

* * *

قال المحامي ستيفنز: «مخفر الشرطة هو الذي كان يجب أن تقصداه.»

تكلَّمَ الزوج وقال: «لم نكن نعرف ما إذا كان يتعيَّن علينا فعْلُ ذلك أم لا.» وضع كلتا يديه على الطاولة، وأصابعه ممدودة تضغط على الطاولة وتشد مفرشها.

قال المحامي ستيفنز: «ليس اتهامًا. مجرد معلومات.»

جرَتْ عادته على التحدُّث بهذه الطريقة المقتضبة حتى قبل إصابته بالسكتة الدماغية، ولاحظتْ مورين منذ وقتٍ طويل كَمْ أنَّ بضع كلمات ينطق بها زوجُها بنبرة تكاد تخلو من المودة؛ من شأنها رفع الروحِ المعنوية للناس وإزالة عبء ثقيل عن كاهلهم.

كانت تفكِّر في السبب الآخر الذي دعا النساء إلى الإعراض عن زيارة السيد سيديكاب. لم تعجبهن الملابس؛ ملابس النساء، الملابس الداخلية، وحمَّالات الصدر القديمة المهترئة، والجوارب الخشنة الملَمس المتدلية من ظهور الكراسي، أو من حبل الغسيل المعلَّق أعلى المدفأة، أو المُكوَّمة فحسب على الطاولة. لا بد أن كل هذه الأشياء كانت لزوجته بالطبع، وبدا لأول وهلة أنه ربما يغسلها ويُجفِّفها ويفرزها قبل أن يتخلَّص منها، لكنها لم تبرح مكانها أسبوعًا تلو الآخَر، والنساء يتساءلن: هل تركها ملقاةً هناك هكذا ليوحي بأشياء معينة؟ وهل كان يرتديها هو نفسه؟ هل كان مُنحرِفًا؟ «منحرف.» لعلهن على حق، وربما سيقودهن إلى حيث انهالَ على هيذر ضربًا حتى الموت خلال نوبة هياج جنسي، أو ربما عثرن على شيء يخصُّها في بيته. وسيقول الناس بأصوات خافتة بغيضة إن ذلك لم يكن بمنزلة المفاجأة بالنسبة إليهم؛

سيقول بعضهم لبعض: «لم أُفاجَأ البتة. هل فُوجِئْتَ؟»

طرحَ المحامي ستيفنز بعض الأسئلة عن طبيعة العمل بمحطة دوجلاس بوينت للطاقة الذرية، وأجابته ماريان: «إنه يعمل بقسم الصيانة. كلَّ يوم عندما يهمُّ بالرحيل، يجب أن يخضع لفحص بالأشعة السينية، وحتى الخِرَق التي يمسح بها حذاءَه يجب دفنها تحت الأرض.»

عندما أغلقت مورين الباب بعد رحيلهما ورأت شبحهما من وراء الزجاج المعتم، لم تكن مقتنِعة تمامًا، فصعدت ثلاث درجات وصولًا إلى بَسْطَة الدَّرَج؛ حيث كانت ثمة نافذة مقوسة، وراقبتهما منها.

لم تكن في الأفق أيُّ سيارة أو شاحنة أو غيرهما من العربات التي ادَّعَيَا امتلاكها. لا بد أنهما أوقفاها بالشارع الرئيسي، أو في ساحة الانتظار خلف دار البلدية. من المُحتمَل أنهما لم تكن لديهما رغبة في أن يراها أحدٌ أمام بيت المحامي ستيفنز.

كانت دار البلدية ومخفر الشرطة في المكان نفسه. انعطفا بهذا الاتجاه، لكنهما عبرا الشارع بزاويةٍ وجلسا، دون أن يغادِرَا مَرْمَى بصر مورين، على الجدار الحجري الخفيض المحيط بالمدافن القديمة وتلك البقعة الغنَّاء الوافرة الأزهار المعروفة باسم متنزه بايونير.

ما الذي يدفعهما إلى الجلوس بعد أن جلسا في غرفة الطعام لمدة ساعة على الأقل؟ لم يتكلَّم أو ينظر أحدهما إلى الآخَر، لكن بَدَا أنهما متحدان وكأنهما يأخذان قسطًا من الراحة في خِضَمِّ أعمالٍ شاقة يضطلعان بها معًا.

عندما يميل مزاجُ المحامي ستيفنز إلى استرجاع الماضي، كان يتحدَّث عن

هذا الجدار وكَمْ كان الناس يلجئون إليه طلبًا للراحة؛ المزارعات اللائي كنَّ يَزُرْنَ المدينة لبيع الدجاج أو الزبد، والفتيات الريفيات في طريقهن إلى المدرسة الثانوية، قبل وجود ما يُعرَف باسم حافلة المدرسة، كُنَّ يتوقَّفنَ ويُخبِّئن أحذيتهن الفوقية، ثم يستعدنها في طريق عودتهن إلى البيت. في أوقات أخرى، لم يكن يُحتمَل استرجاع الماضي. «الأيام الخوالي. مَنْ ذا الذي يتمنَّى عودتها؟»

نزعت ماريان بعض الدبابيس من شعرها ورفعت قبعتها بحرص. كان هذا هو السبب إذن؛ كانت قبعتها تؤلمها. وضعتها في حجرها، ومدَّ زوجُها يدَه وأبعدها، وكأنه كان حريصًا كل الحرص على أن ينزع عنها كلَّ ما يمثِّل عبئًا عليها. وضَعَها في حِجْره، ثم مالَ وأخذ يمرِّر يدَه عليها بلطفٍ ورِقَّةٍ. أخذ يمسِّد تلك القبعةَ المصنوعة من الريش البُني البَشِع وكأنه يهدِّئ من روع دجاجة مرتعبة. لكن ماريان أوقفَتْه، قالتْ له شيئًا ما، وثبَّتَتْ يده بيدها كأمٍّ تقاطِع عبثَ طفلها الأبله بنوبةٍ من الغضب، أو بحرمانه للحظةٍ من حبها الذي تُغدِقه عليه.

* * *

شعرت مورين بصدمة؛ شعرتْ بتقلُّص في عظامها.

جاء زوجها من غرفة الطعام. لم تُرِدْ أن يراها وهي تراقبهما؛ فأدارت مزهريةَ الأعشاب المجفَّفة المستقرة على حافة النافذة وقالت: «حسبتها لن تفرغ من الكلام.» لم يلاحظ هو ذلك؛ كان ذهنه شاردًا في شيءٍ آخَر. قال: «تعالي هنا.»

في بداية زواجهما، قال زوج مورين لها إنه وزوجته الأولى قرَّرَا الانقطاع

عن العلاقة الحميمية بعد ميلاد هيلينا الابنة الصغرى. قال: «لقد أنجبنا صبيًّا وفتاةً فلا داعيَ لمحاولة إنجاب المزيد"؛ لم تفهم مورين حينئذٍ أنه ربما كان يرمي لانقطاعٍ شبيهٍ عنها. كانت واقعة في حبه عندما تزوَّجته. صحيحٌ أنه عندما طوَّق خصرها بذراعه لأول مرة في المكتب، حسبت أنه اعتقد لا محالةَ أنها متَّجِهة إلى الباب الخاطئ وأنه يُعِيد توجيهها، لكنها خلصتْ إلى هذا الاستنتاج بسبب تحفُّظه، لا لأنها لم تكن تتوق للإحساس بذراعه وهو يطوّقِها. لكن لا بد أن الناس الذين حسبوا أنها مُقدِمة على زواجٍ لأغراض المصلحة قد أصابهم الذهول من فرط سعادتها أثناء شهر العسل، على الرغم من أنها اضطرت لتعلُّم لعبة البريدج. كانت تعلم مواطن قوته، وكيف كان يستغلها، وكيف كان يكبحها. كانت تراه جذَّابًا، بغضِّ النظر عن عمره وحُمقه وآثار النيكوتين على أسنانه وأصابعه. كانت بشرته دافئة. بعد الزواج بعامين، فقدتْ جنينَها، وأُصِيبت بنزيف شديد، لدرجة استدعت رَبْطَ قناتَيْ فالوب لديها لمنع تكرار النزيف. وبعد هذه الواقعة، انتهى الجزء الحميم في علاقتها مع زوجها، وبدا أنه كان يجاريها فحسب؛ لأنه شعر أنه من الإجحاف حرمان أي امرأة من فرصة الإنجاب.

أحيانًا ما كانت تضايقه بعض الشيء، فيقول لها: «مورين، عَلامَ كل هذه الجلبة؟» أو يخبرها بأن تُحسِن التصرُّف، قائلًا: «تصرَّفي بنضج.» كانت عبارةً يراد بها الزجر اقتبَسَها من طفلَيْه، وظلَّ يستخدمها بعد أن توقَّفَا هما عن استخدامها لفترة طويلة. في واقع الأمر، لفترة طويلة منذ رحيلهما عن البيت. كانت تشعر بالإهانة من قوله هذا، وتغرورق عيناها بالدموع. كان أكثر ما يكرهه الدموع.

حدَّثت نفسها الآن قائلةً: أَلَمْ يكن من الأفضل أن يعود الحال إلى ما كان عليه من جديد؟ ذلك لأن شهوة زوجها عاودَتْه، أو ظهرت لديه شهوة جديدة تمامًا. لم يكن هناك أثرٌ الآن للطقوس الخرقاء بعض الشيء، والولع الرسمي الذي تميَّزت به الأيام الخوالي؛ الآن أصبحت عيناه مكفهرتين، ويبدو وجهه مُثقلًا. كان يتحدَّث إليها بطريقة مقتضبة ومخيفة، وأحيانًا كان يدفعها ويلكزها ويجذبها نحوه بشدة. لم تكن بحاجة إلى أيٍّ من ذلك لتتعجَّل؛ فقد كانت تشتاق لأن تدعوه لمعاشرتها خشيةَ أن يسيء التصرُّف في مكانٍ آخَر. استحال مكتبه القديم إلى غرفة نوم بالطابق السفلي مُلحَق بها حمَّام كي لا يضطر إلى صعود الدَّرَج. على الأقل كان لهذه الغرفة قفلٌ فلا تقتحم خلوتُهما فرانسيس، لكن يُحتمَل أن يرنَّ جرس الهاتف، وقد تضطر فرانسيس إلى البحث عنهما. قد تقف خارج الباب فتسمع أصوات علاقتهما الحميمة؛ أنفاس المحامي ستيفنز المتلاحقة ونخيره واستئساده عليها، وهسهسته وهو يملي عليها أن تفعل كذا ولا تفعل كذا، وضربه لها في النهاية، والأمر الذي يُصدِره حينئذٍ؛ الأمر الذي ربما لم يكن لأحد أن يفهمه سوى مورين، الأمر الذي ينمُّ، على الرغم من ذلك، عن الكثير من تطرُّفه.

«قولي ألفاظًا بذيئة!!» صدر هذا الأمر من الرجل الذي حبس ذات مرة ابنته هيلينا في غرفتها عقابًا لها على سبِّ أخيها بعبارة: «ابن سِفاح لعين.»

تعرف مورين الكثير من الألفاظ البذيئة، لكن كان من الصعب عليها في حالتها المرتبكة هذه أن تميِّز أيُّها الأنسب، وأن تنطقها بنبرة مقنعة. حاولت على أية حال؛ فقد كانت تريد أن تساعده أكثر من أي شيء آخَر.

بعدها غطَّ في نوم عميق بَدَا وكأنه يمحو الواقعة من ذاكرته. تسلَّلَتْ مورين إلى الحمَّام، واغتسلت أولًا، ثم أسرعت إلى الطابق العلوي لتغيِّر بعض ملابسها. كثيرًا ما كانت تضطر إلى التعلُّق بالدرابزين؛ حيث كان يخالجها شعور بالخواء والضعف، وكان عليها أن تلتزم الصمت، ليس خشية أن تصدر منها صرخات احتجاجية، بل خشية أن يفلت من بين شفتيها أنينُ الشكوى الذي يجعلها تبدو أشبه بكلبٍ انهال عليه أحدُهم ضربًا.

تدبَّرت أمرها اليومَ بقدرٍ أفضل من المعتاد؛ استطاعت أن تتطلَّع إلى مرآة الحمَّام، وتحرِّك حاجبيها وشفتيها وفكَّها، بحيث تستعيد تعبير وجهها المعتاد. بدا أنها تُحدِّث نفسها أنْ كفَاها تفكيرًا فيما حدث. حتى أثناء العلاقة الحميمة كان باستطاعتها أن تفكِّر في أشياء أخرى؛ فكَّرت في إعداد الكاسترد، وما إذا كان لديهم ما يكفي من الحليب والبيض. وفي خضم هياج زوجها، فكَّرَتْ في الأصابع التي كانت تتخلَّل الريش؛ يد الزوجة الموضوعة على يد زوجها وتضغط عليها.

* * *

لم تأتِ ماري جونستون بجديدٍ في حديثها إلى الفتيات دومًا، وأغلبهن كنَّ يتوقَّعن ما ستقوله. كان باستطاعتهن أن يرسمن تعبيراتٍ مسبقة على وجوههن يغمز بها بعضُهن بعضًا عندما تتحدَّث. كانت تخبرهن كيف جاءَ المسيحُ وتحدَّث إليها عندما كانت مستلقيةً في جهاز الرئة الاصطناعية؛ لم تكن تعني أنه جاءها في الحُلم، أو في رؤيا، أو عندما كانت تهلوس؛ كانت تعني أنه جاءها وتعرَّفَتْ عليه، لكنها لم تكن ترى عجبًا في ذلك. تعرَّفَتْ

عليه على الفور، ولو أنه كان يرتدي معطفَ طبيبٍ أبيض. فكَّرت أن ارتداءه معطفَ طبيبٍ أمرٌ منطقي، وإلا فلم يكن ليُسْمَح له بالدخول؛ هكذا تقبَّلتِ الأمر. وبينما كانت مستلقية هناك في جهاز الرئة الاصطناعية، قال المسيح: «يجب أن تعودي لممارسة البيسبول يا ماري.» كان هذا كل ما قاله. كانت لاعبة بيسبول بارعة، واستخدم المسيح لغةً كان يدري أنها ستفهمها، وبعدها تركها ورحل. وتشبثت بالحياة كما قال لها.

كان هناك بقية لحديثها عن تفرُّد وخصوصية أجسادهن وحياتهن؛ الأمر الذي أفضى بطبيعة الحال إلى ما سمَّتْه ماري جونستون «حديثًا صريحًا» عن الصبية والشهوات (وهنالك اصطنعن تعبيراتٍ بوجوههن؛ كنَّ في غاية الحرج إذ كانت تتحدَّث عن المسيح). تحدَّثت عن الخمر، وعن السجائر، وكيف أن إحداهما تفضي إلى الأخرى. حسبْنَها مجنونةً. ولم تستطع حتى أن تميِّز ما عكفنَ على تدخينه، لدرجةِ أنهنَّ أُصِبْنَ بشيء من الإعياء ليلة أمسِ. كانت رائحة الدخان الكريهة تفوح منهن، لكنها لم تُعلِّق على هذا الأمر قطُّ.

إذن كانت مجنونة، لكنهن جميعًا تركْنَها تتحدَّث عن المسيح ولقائها به في المستشفى؛ لأنهن ظننَّ أنَّ من حقها أن تؤمن بما تؤمن به.

ولكنْ لنفترِضْ أن عينيك وقعتا على شيءٍ بالفعل، لا على غرار المسيح، ولكنْ شيء ما. هذا ما حدث لمورين؛ فأحيانًا وهي على وشك أن تخلد إلى النوم، وقبل أن تستغرق فيه وتداهمها الأحلام، كانت ترى أشياء، أو حتى خلال النهار وأثناء ما تعتبره حياتها العادية، قد ترى نفسها جالسةً على درجات حجرية تتناول الكرز وتراقِب رجلًا يصعد الدَّرَج حاملًا رزمة.

لم تقع عيناها قطُّ على تلك الدرجات أو ذاك الرجل، ولكنْ، لوهلةٍ، بدتِ الدرجاتُ والرجلُ جزءًا من حياةٍ أخرى تحياها؛ حياة طويلة ومعقدة وغريبة ومملة كحياتها هذه. وهي لم تُفاجَأ؛ فإحاطتها علمًا بالحياتيْن في الوقت نفسه مجرد ضربةِ حظٍّ، خطأ سرعان ما جرى تصحيحه. حدَّثَتْ نفسها فيما بعدُ بأنَّ الأمر يبدو عاديًّا جدًّا؛ الكرز، والرزمة.

ما تراه الآن لا وجودَ له في حياتها. ترى يدًا من هاتين اليدين غليظتَي الأصابع اللتين قبضتا على مفرش طاولتها، ومسَّدَتَا على الريش، ترى تلك اليد وهي مُثبَّتة في مكانها دون مقاومة، ولكن بفعل إرادة شخص آخَر؛ تراها مُثبَّتة على مشعل الموقد حيث تعكف على تقليب الكاسترد في القدر المزدوج، واستقرت هناك لثانية أو ثانيتين بما يكفي فحسب لتلفح النارُ اللحمَ الموجود على مشعل الموقد الملتهب، لتلفحه لا لتشوِّهه. كلُّ ذلك يحدث في صمتٍ وباتفاق سابق؛ فعلٌ عارض وبربري وضروري. هكذا بَدَا الأمر. اليد التي أُنزِل بها العقاب داكنة كقفاز أو كظل يد، والأصابع مبسوطة. ما زالت ترتدي الملابس نفسها؛ الكُم الأصفر الفاتح والأزرق الباهت.

* * *

سمعت مورين أصوات حركة زوجها في الردهة الأمامية، فأطفأت الموقد ووضعت الملعقة وذهبت إليه؛ كان قد هندَمَ ثيابه وأعَدَّ نفسه للخروج. كانت تعلم دون أن تسأله إلى أين هو ذاهب؛ سيقصد مخفر الشرطة ليبحث عن البلاغات المقدَّمة والإجراءات التي اتُّخِذَتْ.

قالت: «ربما من الأفضل أن نذهب بالسيارة؛ فالجو حارٌّ بالخارج.» هزَّ رأسه رافضًا وتمتم بشيء غير مفهوم. «أو يمكنني أن أسير إلى جوارك.» لا؛ فهو سيخرج في مهمة جادة، وسيقلّل من شأنه أن تصحبه زوجتُه أو تُقِلَّه.

فتحت له الباب الأمامي وقال لها: «أشكرك.» بنبرته القاسية النادمة على نحوٍ غريب. وبينما يمر من أمامها، يميل بجسده نحوها ويزمُّ شفتَيْه على مقربة من وجنتها دون أن يمسَّها.

لقد رحلا، ولم يَعُدْ ثمة أحدٌ يجلس على الجدار الآن.

* * *

لن يعثر أحدٌ على هيذر بيل. لا وجودَ لجثتها، ولا أثرَ لها. اختفت كالرماد. صورتها التي انتشرت في الأماكن العامة ستذوي وتمسي باهتة، وستبدو ابتسامتها الصامتة بشفتَيْها المزمومتين وكأنها تحاول كتْمَ ضحكة عديمة الاحترام، ستبدو مرتبطةً باختفائها أكثر من ارتباطها بسخريتها من مصوِّرة المدرسة، وسيظل في صورتها دومًا إيحاءٌ طفيف بإرادتها الحرة وروحها الوثَّابة. ولن يُجْدِي سيديكاب نفعًا أبدًا؛ سيظل مذبذبًا بين حيرته ونوباته، ولن يجدوا شيئًا عندما يفتّشون بيته، إلا إذا وُضِعتْ في الحسبان تلك الملابس الداخلية القديمة لزوجته، وعندما ينقبون في حديقته، لن يعثروا إلا على عظام قديمة دفنتها الكلاب، وسيظل كثيرون يعتقدون أنه أَقْدَمَ على شيءٍ ما أو رأى شيئًا ما. «كان له علاقة بما حدث.» وعندما سيُودَع مستشفى الأمراض العقلية الإقليمي، الذي سُمّيَ فيما بعدُ مركزَ الصحة العقلية، ستتلقى الصحيفةُ المحلية رسائلَ من القُرَّاء عن الاحتجاز الوقائي، والتحرُّك بعد فوات الأوان.

وسوف تتلقَّى الصحيفة أيضًا رسائلَ من ماري جونستون تفسِّر فيها لِمَ كانت تتصرَّف هكذا، وستشرح لِمَ كانت تتصرَّف هكذا يوم الأحد المشئوم. وفي نهاية المطاف، سيتعيَّن على رئيس التحرير أن يخبرها بأن هيذر بيل طواها النسيان، وأن المدينة لا تودُّ فحسب أن يَغْلق ذِكْرها بهذه القصة، وأنه إذا قُدِّر لرحلات التسلُّق أن تنتهي، فهذه لن تكون نهاية العالم، وأنه لا يسعنا أن نجترَّ القصةَ إلى الأبد.

ما زالت مورين شابة، ولو أنها لا تعتقد ذلك، وما زالت الحياة تفتح لها ذراعَيْها. ستشهد وفاة زوجها أولًا وستتبع وفاتَه زيجةٌ أخرى، وأماكن وبيوت جديدة. في مطابخ على بُعْد مئات وآلاف الأميال، سترى انعكاسَ صورةِ بشرتها الناعمة على ظَهْر ملعقةٍ خشبية، وستتذبذب ذاكرتُها، لكنها لن تكشف لها عن تلك اللحظة التي تبدو فيها وكأنها تطَّلِع على سرٍّ علني؛ شيء لا يدعو إلى الذهول إلا عندما تفكِّر في إِطْلَاع الآخَرين عليه.

## أولجا توكارتشوك
## أقبح امرأة في العالم

**أولجا توكارتشوك** *

كانت زوجته هي أقبح امرأة في العالم. ولكونه معروفا بأنه منظم للسيرك؛ قام برحلة إلى فيينا لرؤيتها. لم يخطر له مسبقا أنه ربما قد يتخذها كزوجة له. لكن بمجرد أن رآها، وبمجرد أن تجاوز الصدمة الأولى، لم يتمكن من أن يبعد عينيه عنها. كان لديها رأس كبير مدفونا بين الكتل والتورمات. وكانت عيناها الصغيرتان، والباكيتان دوما موضوعين أسفل حاجبيها القصيرين المجعدين. وبدتا من بعيد كما لو كانا شقين ضيقين. وظهر أنفها كما لو كان مكسورا بعدة مواضع، كان طرفه أزرقا داكنا؛ وكان فمها ضخما، ومتورما، دوما متروك مفتوح، دوما مبتل، بسِنة حادة مدببة لداخله. وفوق كل هذا؛ وكأن هذا غير كافٍ، كان وجهها بالغ الطول، ذا شعر حريري هائش.

حين رآها لأول مرة كانت تطل من خلف الحجاب الكرتوني لخشبة مسرح السيرك المتنقل كي يراها الحضور. هبت عاصفة مدوية من التعجب

---

* (ولدت في ٢٩ يناير ١٩٦٢) هي كاتبة وناشطة ومفكرة بولندية، حصلت على جائزة مان بوكر الدولية سنة ٢٠١٨، وهي أول من حصل عليها من الكُتّاب البولنديين. حصلت على جائزة نوبل في الأدب لسنة ٢٠١٨، وجاء في حيثيات منحها الجائزة: ٢٠١٨ لأنها قدمت "خيالا سرديا يمثّل بخوالج موسوعية عبور الحدود كأسلوب حياة". تحمل أولغا شهادة علم النفس من جامعة وارسو، سبق لها العمل كمعالجة نفسية قبل أن تمتهن الكتابة، ونشرت نحو ١٢ عمل أدبي.

والاشمئزاز معا فوق رؤوس الجميع وسقطت عند قدميها. كانت تبتسم ربما، كانت تقف واثقة من نفسها، مدركة لحقيقة أن دستة من الأعين تحدق بها، بتوقٍ متشربين بكل تفصيل، بحيث يمكنهم- الحاضرون- وصف هذا الوجه لأصدقائهم وللجيران أو إلى أولادهم، أو كي يتمكنوا من استدعائه مجددا، بينما يقارنون بينه وبين أوجههم بالمرآة، ويتنفسون بعدها زفرة من الارتياح. كانت تقف بصبر، ربما بقدر من التفوق، وحدقت لما فوق الرؤوس نحو أسطح المنازل وراءهم. وبعد صمت طويل، ممتلئ بالدهشة، أخيرا صرخ شخص "حدثينا عن نفسكْ"

ظهرت في البقعة التي منها أتى الصوت. كانت تبحث عن الشخص الذي قال ذلك، لكن حينئذ جرت مدربة سمينة بالسيرك من تحت الأجنحة الكرتونية للمسرح وأجابت نيابة عن أقبح امراة في العالم "إنها لا تتحدث"، فقال الصوت: "إذن اخبرينا حكايتها" ابتلعت السيدة السمينة ريقها وبدأت بالحديث.

بعد الأداء، وبينما كان يعد كوبا من الشاي بواسطة موقد القصدير الصغير والذي أدفأ ما بداخل مقطورة السيرك؛ وجدها ذكية جدا. بالطبع كان بإمكانها الحديث، وكلامها مفهوما كذلك. راقبها عن قرب مصارعا افتتانه بهذا المسخ الخاص. كان يمكنها معرفة ذلك. سألته: "اعتقدت أن خطبتي سوف تكون غريبة ومثيرة للاشمئزاز كما وجهي، أليس كذلك؟

لم يُجب.

شربت شايها بالطريقة الروسية، صابة إياه من الساموفار إلى أكواب

صغيرة، كانت الأكواب بلا مقابض. كانت تمتص مكعب سكر بين كل رشفة. وسرعان ما اكتشف أنها تعرف العديد من اللغات، لكن كما يبدو أنها لا تجيد التحدث بأي لغة منهم. من وقت لآخر كانت تتنقل من لغة لأخرى. لم يعد ثمة مدعاة للاندهاش، فقد نشأت منذ طفولتها المبكرة بالسيرك بجماعة عالمية مليئة بالأغراب، من كل نوع، فلا يوجد مثيلٌ لأحدهم بنفس المكان.

"أنا أعلم بماذا تفكر" ناظرة إليه بتلك الأعين الحيوانية الصغيرة المنتفخة. وبعد فترة من الصمت قالت "فأي شخص ليس لديه أم، ليس لديه أيضا لغة أم كذلك. أستخدم العديد من اللغات، لكن ولا واحدة منها تخصني"

لم يجد الجرأة للرد. على الرغم من كونه لا يعلم لماذا، فجأة بدأت تعصبه. كانت تقول ملاحظات لماحة. وحالها متماسكة ودقيقة على عكس ما كان يتوقعه منها. لذا حياها مودعا، ولدهشته أعطته يدها، لفتة نسائية للغاية، بإيماءة سيدة، في الواقع؛ يدها جميلة كانت. بدوره، انحنى نزولا إليها، لكن لم يمسها بشفتيه.

كان ما يزال يفكر بأمرها، بينما كان يستلقي على ظهره بسرير الفندق.

ظلمة الفندق المخيمة، هذا النوع من الظلمة والذي حذا بخياله أن ينبعث. استلقى هناك متسائلا عن كنه أن يصبح مثلها، عما يكون شعورها بداخلها، وكيف يبدو العالم عبر عيون مثل أعين الخنزير خاصتها، ماذا بشأن تنفسها الهواء عبر هذا الأنف، المشوه؟ هل تشتم حتى نفس الأشياء كما

الأشخاص الطبيعيون؟ وشعورها بلمس جسد مثل هذا كل يوم أثناء الاغتسال؟ أو الحك؟ أثناء أداء كل هذه الأشياء الصغيرة المعتادة؟

لم يشعر بالأسى بمرة تجاهها أبدا. ولو كان قد تعاطف معها، لم يفكر أبدا في التقدم إليها.

اعتاد بعض الناس رواية هذه القصة كما لو كانت علاقة حب عابرة غير سعيدة، قائلين بأن قلبه توقف مباشرة بطريقة ما لدى رؤيتها، وقتما وقع بحب ملاكه الرقيق كاشفا ما بداخلها؛ رغم وجهها الكريه. ولكن لا، لم يكن تفكيره بشيء من هذا القبيل.

ببساطة، بعد مقابلتها بهذه الليلة لم يتوقف عن التخيل بشأن كيف سيمارس الحب مع مخلوق مثل هذا؟ أن يُقبلها، ويعريها..

ظل يحوم حول السيرك بعدها عدة أسابيع. كان يغادر ثم يعاود مرة أخرى مجددا. إلى أن اكتسب ثقة المدير وتفاوض بشأن عقد للفرقة في مدينة برنو. وإلى هناك تبعهم، وبدأ أهل السيرك باعتباره فردا منهم. تركوه يبيع التذاكر، ولاحقا تولى الأمر عوضا عن سيدة تقديم السيرك السمينة، ويمكن القول أنه كان جيدا بهذا العمل، بقيامه بتحميس الجمهور قبل أن ترفع ستارة المسرح الرثة.

قال صارخا "اغمضوا أعينكم" وأتبع "خاصة السيدات والأطفال، لأن بشاعة هذا المخلوق تصعب على الأعين الحساسة تحملها. لا أحد قد رأى وحش الطبيعة هذا عاد قادرا أن يقع بالنوم بسلام من جديد. وفقد بعض الناس منهم إيمانهم بالخالق.."

أنزل رأسه عند هذه اللحظة، بدا كما لو أنه ترك جملته غير مكتملة، على الرغم من كونها مفهومة؛ هو لم يكن يعلم ماذا يقال أيضا. هو أطلق كلمة "الخالق" لكن في ضوئها الملائم. نعم من الممكن لبعض الناس أن يفقدوا إيمانهم بهذا الخالق، بالنظر إلى تلك المرأة خلف الستارة، لكن بداخله أصبح مقتنعا بالعكس: فقد حدث، وأثبت الخالق وجوده باختياره سيدة التقديم خارجا، واهبا هذه الفرصة إليه. أقبح امرأة في العالم. سابقا قد تقاتل الأغبياء مع الحمقى، وقتلوا بعضهم لأجل السيدات الحسناوات. وكذلك وهب بعض من الحمقى ثرواتهم بهوى النساء. لكنه لم يكن مثلهم. فقد خطب وده أقبح امرأة كما حيوان أليف، حزين. كانت مختلفة عن كل السيدات الأخرى، حتى أنها وفرت له فرصا مالية عبر الاتفاق. سيوفر إذا ما جعلها زوجته. خاصة أنه كان لديه شيء لم يكن لدى كل الناس.

بدأ بشراء الورود لها فقط باقات صغيرة رخيصة ملفوفة بالفويل بعقدة منديل ورقية سخيفة. أو كان يعطيها منديل عنق قطني، شريطا لامعا، أو علبة صغيرة من شوكلاتة اللوز. بعدها يشاهد، منوَّما، وهي تربط الشريط حول جبهتها، وعوضا عن كونها قطعة تزيين، تستحيل الربطة الملونة رعبا. يراقبها بينما تبتلع الشوكلاتات بلسانها المنتفخ، الزائد عن الطبيعي، مسببة لعابا بنيا بين أسنانها العريضة المتباعدة ويقطر نزولا إلى ذقنها المخشوشن.

كان يحب أن ينظر إليها وهي لا تعلم أنه يشاهدها. ينسل في الصباح ويختبئ خلف الخيمة أو المقطورة، ثم يتسلل كي يكمن أقرب ويشاهدها لساعات بوضع مناسب، حتى عبر الشقوق بالسياج الخشبي. كانت قد اعتادت أن تتشمس، وبينما تفعل تمضي وقتا طويلا بتمشيط شعرها المجعد

ببطء، كما لو كانت بغيبوبة، تجدل إياه إلى ضفائر أرفع ثم على الفور تفكها من جديد. أو عوضا عن ذلك تصنع الكورشيه، والأبر بيدها تتلألأ بضوء الشمس وهي تطعن الهواء الصاخب للسيرك، أو بأيد عارية تغسل ملابسها بحوض الغسيل، بقميص فضفاض. بحينئذ كان الجلد حول ذراعيها وأعلى صدرها مغطى بفراء شاحب. بدا جميلا. ناعما، كما لو كان لحيوان.

كان بحاجة إلى هذا التجسس، لأنه يوما بعد يوم يقل اشمئزازه، يذوب في الشمس، يختفي مثل بركة بعد ظهيرة حارة. باتت تدريجيا عيناه تعتاد على عدم التماثل المؤلم لديها، على نسبها المكسورة، على كل قصورها وزياداتها. وأحيانا كان يظن أنها حتى تبدو طبيعية.

وكلما بدأ يشعر بعدم الارتياح، أخبرهم عن مضيه بعيدا في عمل ضروري، أن لديه اجتماع مع فلان أو علان، وربما ذكر اسما غريبا، أو على العكس اسما شهيرا. كان يبرم الصفقات، يجري المحادثات، يلمع الأحذية، يغسل قميصه المفضل، وينطلق بطريقه. لم يكن يبتعد كثيرا. من الممكن أن يتوقف بأقرب بلدة، ويسرق محفظة أحدهم، ويسكر. لكن رغم ذلك لم يكن أبدا متحررا عنها، لأنه عامة يبدأ في التحدث عنها. لم يستطع على بعدها، حتى خلال تلك المغامرات.

الشيء الأكثر غرابة، أنها أصبحت أثمن ممتلكاته. كان يدفع رغم قبحها لشرب النبيذ وقتما أراد، وأكثر من ذلك، كان يسامر فتاة جميلة بوصفه لوجهها القبيح، وفتاة أخرى التي أخبرته بأن يغرب للحديث عنها لاحقا، بهذه الأمسية، عندما كانوا متمددين حوله عاريتين.

عندما يعود، سوف يكون لديه دوما قصة جديدة حول قبحها جاهزة لقولها للجمهور، مدركا أن لا شيء يصبح واقعا حتى يكون لديه قصته الخاصة به. في البدء جعل فتاته تحفظها عن ظهر قلب، لكنه سرعان ما أدرك أن المرأة الأقبح لم تكن جيدة برواية القصص: تتحدث بملل، وتنفجر بالبكاء بنهايتها، لذا بدأ بروايتهم نيابة عنها. سيقف إلى جانب، مشيرا بيده نحوها، ويتابع حديثه "عاشت أم هذا الكائن غير المحظوظ الذي يظهر أمامكم، والذي رؤيته أبشع شيء يمكن لأعينكم البريئة أن تحتمله بقرية على حدود الغابة السوداء. وهناك، بيوم صيفي، وبينما كانت تقطف التوت من الغابة، تم مطاردة الأم بواسطة خنزير وحشي، والذي هاجمها بلوثة من الجنون والشهوة الفظة.."

بهذه اللحظة كان يسمع دون تقطع صرخات، مكتومة، مصعوقة من الرعب، وبدأت بعض النسوة ممن كن يرغبن بالفعل في المغادرة بجذب أكمام أزواجهن المتمنعين.

كان لديه نسخا عديدة: "أتت هذه المرأة من أرض ملعونة من قبل الرب. من نسل سلالة شريرة، بلا قلب ولأجل ذلك عاقب ربنا هذه القرية بأكملها بهذا القبح الوراثي الفظيع.." أو "هذا هو المصير الذي يصيب أطفال النساء الساقطات. ها أنتم ترون ثمار داء الزهري، مرض رهيب، والذي يعاقب للنجاسة حتى الجيل الخامس!"

لم يشعر قط بالذنب. أي واحدة من هذه القصص من الممكن أن تكون صحيحة. لأن المرأة الأقبح أخبرته "كنت دوما هكذا. وجدوني

بالسيرك وأنا رضيعة. ولا أحد يتذكر ما حدث قبلها"، عندما أتى موسمهما الأول معا لنهايته، وكان قد سافر السيرك بمنحنى كسول عودة إلى فيينا لأجل بياته الشتوي، حينئذ تقدم إليها. احمرت خجلا وارتعدت. ثم قالت بهدوء "حسنا!" وبرفق أراحت رأسها على ذراعه. كان بإمكانه شم عطرها. كان صابونيا وناعما. أبقى هذه اللحظة بعدها تراجع للوراء وبدأ بإخبارها بشأن خططه معا لحياتهما المستقبلية، ذاكرا كل الأماكن التي سوف يزورانها. وبينما كان يسير إلى الغرفة، أبقت عينيها مثبتة إليه، لكنها كانت حزينة وصامتة. في بالأخير تولت الحديث عنه وقالت أنها تفضل العكس تماما، بأن يقيما بمكان ناءٍ، ألا يضطرا للذهاب أبدا إلى أي مكان، أو رؤية أي شخص. إنها سوف تطبخ، وسوف يكون لديهما أطفال وحديقة.

"لن تكوني قادرة أبدا على التعامل مع ذلك" ورد ساخطا "لقد نشأتِ في السيرك. أنتِ تريدين، تحتاجين، إلى أن يتم النظر إليكِ. ستموتين دون نظر الناس إليكِ"

لم تجب.

تزوجا بالكريسماس، بكنيسة صغيرة ضئيلة. كاد الكاهن الذي أجرى بينهما المراسم أن يغمى عليه. كان صوته يرتجف وهو يتلو. كان الحضور أشخاصا من السيرك، أخبرها وقتها أنه ليس له عائلة، وأنه مثلها وحيد تماما في هذا العالم.

وبينما كان كل الموجودين ينعسون في كراسيهم، كانت كل الزجاجات فارغة وحان أوان الذهاب إلى الفراش (حتى إنها كانت تتعلق بكمه منتشية)،

أخبر الجمع بأن ينتظر، وأرسل لأجل المزيد من النبيذ. لم يكن بمقدوره السكر، رغم كونه يحاول قدر ما يمكنه الاستطاعة. لكن كان شيء بداخله متيقظا للغاية، مشدودا كما وتر. لم يكن بمقدوره أن يرخي أكتافه، أو يمدد ساقيه، لكن جلس وقتئذ حازما منتصبا، وجنتاه زاهيتان، وعيناه تلتمع.

همست "حبيبي، هيا بنا نذهب" لكنه تعلق بحافة الطاولة كما لو ثبت بواسطة مسامير غير مرئية. افترض معظم الحضور الملاحظين أنه ببساطة خائف من أي حميمية معها، عاريا، خائف من العلاقة الحميمية الإلزامية بموثق إتفاقية ما بعد الزواج. هل كان هذا في الحقيقة؟

قالت "المس وجهي" لكنه لم يفعل. فقد رفع نفسه بعيدا عنها مباعدا بين يديه لذا كان كل ما يمكنه رؤيته بالظلام صورتها الظلية، أخف قليلا من الظلمة بباقي الغرفة، رقعة باهتة بلا أي ملامح جلية. ثم أغمض عينيه– لم يمكنها رؤية ذلك– وأخذها، مثل أي امرأة أخرى، بلا أي فكرة برأسه، كما اعتاد.

بدآ الموسم المقبل بمفرديهما. كان لديه بعض الصور التي التقطها لها، ووزعها بأنحاء العالم. أتت الحجوزات عبر التلغراف. أتى لديهما الكثير من العروض وسافرا على الدرجة الأولى. كانت دوما ترتدي قبعة بطرحة رمادية ثقيلة، ومن خلفها رأت روما، فينيسيا، الشانزليزيه. جلب لها فساتينا عديدة وبرم لها الكورسيه بنفسه، كي يتمكنا من المشي عبر الشوارع المزدحمة لمدن أوروبا، بديا كما زوجين آدميين مناسبين. على الرغم من ذلك، وخلال هذه الأوقات السعيدة، كان ما زال يضطر إلى الهرب من وقت إلى آخر. كان من

هذا النوع من الرجال: الهارب الأبدي. فجأة تنتابه نوبة من الهلع، قلق مرضي لا يطاق. يبدأ بالتعرق والاختناق، بعدها يأخذ حفنة من المال، يجلب قبعته، يركض عبر السلالم، يجد نفسه قريبا، بانسياق واقعا بإحدى تلك الغطسات قرب الميناء.

هنا وهنا فقط يسترخي، ووجهه يتراخى، وشعره يرفرف، والرقعة الصلعاء المختبئة دوما خلف شعره المسرح للخلف تبرز بوقاحة للجميع ليراها. سوف يجلس ويشرب بروية وفرح، تاركا نفسه طافيا إلى أن تسرقه بعض العاهرات المقيمات. وفي المرة الأولى التي عايرته أقبح امرأة بشأن سلوكه، لكمها بمعدتها، لأنه إلى الآن كان لايزال خائفا من لمس وجهها.

لم يعد يروي قصصا عن الخنزير في الغابات كما كانا يمارسان روتينهما. فقد تسلم خطابا من بروفيسير للطب من فيينا، وأضحى يفضل تقديم زوجته بمنظور علمي: "سيداتي، سادتي، لدينا هنا مسخ من الطبيعة، متحولة، خطأ للتطور، الحلقة الحقيقية المفقودة. عينات من هذه النوعية نادرة الحدوث. احتمالية أن يولد المرء هكذا ضئيلة كما احتمالية أن يضرب نيزك هذه البقعة بالذات بينما أنا أتحدث"

اعتادا بالطبع على زيارة بروفيسير الجامعة من وقت لآخر، وبالجامعة وقفا لالتقاط الصور معا. كانت جالسة، وهو واقف خلفها، ويده على كتفها. وذات مرة، بينما كان يجرى قياسا للزوجة، طلب البروفيسير كلمة مع الزوج.

قال "أتساءل إذا ما كان تشوهها وراثيا؟" ثم "هل فكرت بشأن إنجاب الأطفال؟ هل جربت؟ هل زوجتك؟.. إممم.. هل أنت بالحقيقة قد...... إممم..........؟"

وبعد فترة ليست ببعيدة، ربما ليس كذلك على صلة بهذه الدردشة السرية، أخبرته أنها حامل. من هذه اللحظة انفصم الرجل. أراد لها الحصول على طفل فقط مثلها، ليمكنهم الحصول على المزيد من العقود، المزيد من الدعوات. لو كان بحاجة لزيادة فسوف يضمن الآن عيشة طويلة؛ حتى لو ماتت زوجته خلال هذا، ولم لا يكون كذلك مشهورا؟ ولكن بعدئذ فكر في حال إذا ما أتى الطفل وَحَشا، وكونه يفضل أن ينزعه من بطنها لحمايته من دمها المعيوب، المسمم عوضا عن رؤيته مقضي عليه بحياة كما حياتها. ورأى أحلاما، كان هو نفسه ذاك الابن في بطنها، مسجونا هناك، ملعونا بأن يُحب من سيدة مثل هذه، وبحبسه بداخلها، تخيل أنها تدريجيا تغير وجهه. أو حلم آخر كان ذاك الخنزير البري في الغابة، ويغتصب فتاة بريئة. واستيقظ غارقا بالعرق، وهو يرجوها بشأن الإجهاض.

أعطى مظهر بطنها الشجاعة للجمهور، وجعل من السهل لهم غفران قبحها الوحشي. بدأوا بطرح أسئلة، والتي أجابتها بخجل ومُسَالَمة، وبطريقة مقنعة. وبدأ المعارف الأقرب لهم بعقد المراهنات بخصوص الطفل، وعما إذا كان فتاة أو ولد. احتملت كل هذا بوداعة كما حَملْ. وبالمساء تحيك ملابسا للطفل.

قالت "تعلم؟" توقفت للحظة، مثبتة عينيها ببقعة بعيدة "الناس هشة للغاية، ووحيدون جدا. أشعر بالأسى حيالهم بينما هم جالسون أمامي، محدقون بوجهي. كما لو كانوا بحاجة لإلقاء نظرهم جيدا نحو شيء، ملء أنفسهم بشيء. أحيانا أعتقد أنهم يحسدونني. فعلى الأقل أنا شيء. إنهم يفتقرون إلى أي شيء استثنائي، لكونهم بحاجة لأي تميز يخصهم."

جفل حينما قالت ذلك.

ليلا قد وُلَدت، بلا أي جلبة، بهدوء، كما حيوان. جاءت القابلة فقط لقطع الحبل السري. أعطاها قبلا حفنة من العملات، ليتأكد أنها لن تنشر عنها أي حكايات مبكرا. كان قلبه يطرق خارجه، أضاء كل اللمبات مرة واحدة، لكي يكون قادرا على إعطاء هذا الشيء نظرة دقيقة. كان الطفل بشعا، أسوأ بمراحل عن أمه. كان عليه أن يغلق عينيه ليمنع نفسه من التقيؤ. فقط وبوقت لاحق، أقنع ذاته بأن المولود الجديد كان فتاة، كما زعمت أمه.

ولذا مضى إلى مدينة مظلمة، كانت فيينا، أو ربما كانت برلين. كان يتساقط ثلجا مبللا، وخفيفا. خطا حذائه بخفة فوق أحجار الرصيف. شعر بنفسه منقسما بداخله سعيدا من جديد، ولكن بائسا بنفس الوقت. سَكَر، وبقى واعيا. حلم أحلام يقظة، وشعر بالخوف. بعد عدة أيام لاحقة عندما عاد، كان لديه بالفعل أفكار بشأن ارتباطاتهم الارتحالية الترويجية. كتب إلى البروفيسير، والذي رتب للمصور لأن يقدمْ، وسجل بيد ترتعد خلال الفلاش بعد وميض المغنيسيوم القباحة الوحشية لكلي المخلوقين.

واعتقد أنه بمجرد أن ينتهي الشتاء، وتزهر الفورسيثيا، وتجف أحجار طرق المدن الكبيرة، بطرسبرغ، بوخارست، براغ، وارسو، أبعد من ذلك وأبعد على طول الخط إلى نيويورك وبوينس آيرس. وبمجرد أن تمتد السماء فوق سطح الأرض مثل شراع أزرق سماوي ضخم، فإن العالم بأسره سوف يسحر ببشاعة زوجته وابنته، وسوف يركع أمامهم على ركبتيه.

وعند هذه اللحظة قبَّلها على وجهها لأول مرة على الإطلاق. ليس

على الشفه، لا، لا.. بل فوق الحاجب. نظرت إليه بأعين صافية، بشرية تقريبا. ثم عاوده السؤال، السؤال الذي بمرة لم يستطع أن يسأله "من أنتِ؟ من أنتِ؟ من أنتِ؟" ظل يكرره لنفسه، فاشلا بملاحظة أنه بدأ بطرح أسئلة تخص الآخرين كذلك، حتى بشأن نفسه أمام المرآة وهو يحلق.

بدا الأمر كما لو اكتشف للتو سرا، أن كل إنسان متنكر، وأن الأوجه البشرية فقط أقنعة، وأن الحياة بأكملها قاعة تنكرية كبيرة. كان أحيانا يتصور مخمورا، أنه ينزع الأقنعة، مع فرقعة رقيقة للورق الملصوق عندما يكشفه... ماذا؟ لم يكن يعلم.

بدا ضجرا لأنه لا يمكنه احتمال التواجد معها بالبيت أو مع الطفل. كان خائفا أنه بيوم ما بحال أن يستسلم لهذا الإغواء الغريب، ويبدأ محاولا بكشط القبح لوجهها. أن ينقب بأصابعه في شعرها وصولا إلى أطرافه الخفية، وحواف الجلد، وخطوط الغراء. لذا كان يتسلل خلسة للشراب، مفكرا بشأن ارتحالهم القادم، يصمم البوسترات، ويصيغ جديد التلغرفات.

لكن بأوائل الربيع أتى وباء الإنفلونزا الأسبانية الرهيب، ووقعت له الأم، والطفلة. تمددا لجوار بعضيهما في حمى، يتنفسان بصعوبة. وكانت الأم من وقت لآخر نابعا من غريزتها المرتعبة تحتضن الطفلة إليها، محاولة إطعامها بهذيانها، غير واعية بأنه لم تكن لديها قوة باقية لتمتص ثديها، وأنها كانت تموت. وعندما ماتت أخيرا، أخذها برفق، وأرقدها على طرف الفراش، وأشعل سيجارا.

في تلك الليلة عندما استعادت المرأة الأقبح وعيها، فقط لتبدأ نشيجها، ونحيبها بيأس. كان ذلك أكثر من احتماله، كان صوت الليل،

صوت الظلمة، قادما من أسْوَد هاوية. غطى أذنيه، إلى أن جلب أخيرا قبعته وجرى، لكنه لم يمض بعيدا. تمشى ذهابا وإيابا بين نوافذ شقته حتى الصباح، وبهذه الطريقة قد ساعدها كذلك كي تموت. حدث هذا أسرع مما كان يتوقع.

أغلق على نفسه بغرفتهم، ونظر إلى الجثتين؛ وفجأة بديا ثقيلين، منهكين، جامدين. واندهش من قدركيف هبطت المرتبة أسفلهما. لم يكن لديه فكرة عما يفعل، لكنه لم يخبر أي أحد عدا البروفيسير. جلس يشرب مباشرة من الزجاجة مراقبا الشفق وهو يمحي هيئة الأشكال الراقدة فوق الفراش.

وعندما وصل البروفيسير والذي أتى لفحص ما بعد الوفاة توسل إليه بشكل متقطع "انقذهم" رد لاذعا "هل جننت؟ لقد فارقا الحياة" بعدها أعطاه البروفيسير قطعة من الورق، وقع عليها الأرمل بيده اليمنى، وأخذ المال منه باليد اليسرى. لكن لاحقا بهذا اليوم، قبل اختفائه بالميناء، ساعد البروفيسير بنقل الجسدين بعربة إلى العيادة الجامعية، حيث تم بأقرب وقت تحنطيهما سرا.

ولوقت طويل، تقريبا لعشرين عام. ظلا واقفين بالقبو الرطب للبناية، حتى أتت لهما أوقاتا أفضل، وخرجا، وذهبا للانضمام للمجموعة الرئيسية، إلى جانب الجماجم اليهودية، والسلافية، والرضع أصحاب الرأسين، والتوائم الملتصقة من كل عرق، ولون. ولا يزال من الممكن رؤيتهما لليوم في مخازن المتحف الباثولوجي– التشريحي. إمرأة مغطاة بالزجاج وابنتها، باقية مجمدة، بوضع لائق تماما، كما بقايا لسلالات جديدة غير ناجحة.

# العاشقان..

## إرنست همنجواي*

ذات مساء حار فى مدينة «بادوفا»، حملوه فوق السطح بحيث يرى الجزء العلوي من البلدة، كانت طيور السمامة تحلق فى السماء، حل الظلام بعد فترة وأُضيئت الأنوار، فيما نزل الآخرون وتركوهم، كان باستطاعته هو ولوز أن يسمعا أصواقم فى التراس. جلست لوز على الفراش، كانت هادئة ونقية فى ذلك المساء الحار.

بقيت لوز تقوم بواجبها الليلي لنحو ثلاثة أشهر. كانوا سعداء بالسماح لها بذلك، عندما أجروا له العملية، جهزته لطاولة العمليات. ألقوا بعض النكات حول صديق ما، أو حول الحقنة الشرجية، حين فقد وعيه تحت تأثير المخدر كان قد شد نفسه بإحكام، لذا لم يكن يثرثر عن أى شيء خلال الحديث السخيف الفارغ. حين حصل على عكازين، اعتاد أن يسجل درجات الحرارة بانتظام، لذا لم يكن على لوز أن تنهض من السرير. كان

* إرنست ميلر همينجواي: ولد في ٢١ يوليو ١٨٩٩ كاتب أمريكي يعد من أهم الروائيين وكتاب القصة الأمريكيين. شارك في الحرب العالمية الأولى والثانية حيث خدم على سفينه حربية أمريكية كانت مهمتها إغراق الغواصات الألمانية، وحصل في كل منهما على أوسمة حيث أثرت الحرب في كتابات هيمنجواي ورواياته. تلقى همينجواي جائزة بوليتزر الأمريكية في الصحافة عام ١٩٥٣. كما حصل على جائزة نوبل في الأدب في عام ١٩٥٤ عن رواية العجوز والبحر. وجائزة بوليتزر الأمريكية، "لأستاذيته في فن الرواية الحديثة ولقوة أسلوبه كما يظهر ذلك بوضوح في قصته الأخيرة العجوز والبحر" كما جاء في تقرير لجنة نوبل. وانتحر في ٢ يوليو ١٩٦١ م.

هناك قليل من المرضى، وكانوا يعرفون بشأن ذلك الشيء، كانوا كلهم يحبون لوز. عندما كان هو يتجول بين القاعات، فكر فى لوز على سريره.

قبل أن يعود إلى الجبهة، ذهبا للصلاة في الكاتدرائية، كانت الكاتدرائية هادئة وخافتة، كما أنه كان هناك آخرون يصلون. كانا يريدان أن يتزوجا، لكن لم يكن هناك وقت للإعلان عن ذلك الزواج، كما أنهما لم يحصلا على شهادات ميلاد أيضًا. شعرا كما لو أنهما تزوجا، لكنهما تمنيا لو أن كل الناس علمت بذلك، كانا يريدان ذلك حتى لا يفقدان بعضهما.

كتبت لوز عدة خطابات لم يطلع عليها إلا بعد الهدنة. خمسة عشر خطابًا جاءت إليه فى رزمة واحدة إلى الجبهة، رتبهم حسب التاريخ، وقرأهم كلهم مباشرة، كانوا كلهم عن المشفى، وصرحت له، كم كانت تحبه، وكيف صار مستحيلًا أن تكمل حياتها بدونه، وكيف كانت تفتقده فى الليل.

اتفقا بعد انتهاء الهدنة على أنه يجب عليه العودة للوطن للبحث عن عمل حتى يتسنى لهما الزواج، ولم تكن لوز لتأتى إلا بعد أن يحصل على الوظيفة ويستطيع أن يرجع لنيويورك ليقابلها. وكان من المفهوم انه لن يشرب الخمر، أو لن يقابل أي من أصدقائه فى أمريكا، كان كل ما يريده أن يحصل على وظيفة ويتزوج. في القطار بين بادوفا وميلان، تشاجرا لعدم نيتها الذهاب للوطن ولو لمرة واحدة. وعندما اضطرا لأن يودعا بعضهما البعض، فى محطة ميلان، قبلا بعضهما قبلة الوداع، لكن لم تنته هذه المرة بمشاجرة. شعر بعدم الرضا لأن الوادع كان بهذه الطريقة.

ذهب لأمريكا على متن قارب من مدينة جنوة، وعادت لوز إلى

بوردينونى لتفتتح المشفى. كانت المنطقة مهجورة وماطرة، وكانت البلدة تأوى «الكتيبة الملكية الإيطالية»، التي تعيش فى مدينة ماطرة وطينية فى الشتاء، كان معظم جنود الكتيبة يكنون حبًا لـ«لوز»، لكنها لم تكن تعرف شيئًا عن الإيطاليين من قبل، عندئذ كتبت خطابًا وأرسلته لأمريكا لتصرح أن علاقتهما كانت محض علاقة غرامية بين فتى وفتاة. كانت آسفة لذلك، وكانت تعرف أنه لن يكون قادرًا على الاستيعاب، لكن يمكن أن يسامحها بمرور الأيام، وأن يكون ممتنًا لها، وكانت تتوقع – ما هو غير متوقع على الإطلاق – أنها ستتزوج بحلول الربيع. دائمًا ما أحبته، لكنها أدركت الآن فقط أن ذلك كان علاقة حب بين فتى وفتاة، تمنت أن يحظى بمشوار مهنى عظيم، وآمنت به قطعًا. كانت تعرف أن ذلك كان أفضل لهما.

معظم جنود الكتيبة لم يتقدموا للزواج بها عندما حل الربيع، أو فى أى وقت آخر، ولم تحصل لوز على أى رد على خطابها التى أرسلته لـ «شيكاغو» حول هذا الموضوع، بعد وقت قصير، التقط هو مرض السيلان من فتاة مبيعات كانت تعمل فى قسم التخزين بمنطقة الأعمال المركزية بشيكاغو، حينما كانا يستقلان سيارة أجرة تمر عبر حديقة لينكولن.

# في أحد الشوارع المألوفة

**إيفان بونين***

في ليلة خريفية باريسية، كنت أمشي في بولفار خافت الضوء، داكن من الخضرة الكثيفة النضرة، حيث الفنارات تحتها تشع ببريق معدني – وانا أحس بالشباب والبهجة، وأردد بيني وبين نفسي:

في شــــــارع مـــألــــوف
اتـــذكـــر مـــنـــزلا قـــديمـــاً
فـيــه ســـــلـم عـــال مـعـتـم
ونوافـذ مســـــدلـة الســـتـائر

ابيات رائعة! ومن عجب، ان كل هذا قد حدث لي ايضا في زمن ما.

موسكو. منطقة بريسنيا. شوارع مثلوجة مقفرة. بيت خشبي صغير، وانا الطالب، ذلك الأنا، الذي لا اصدق الان له وجوداً.

---

* ايفان بونين بدأ حياته شاعراً، ونال أهم جائزة أدبية روسية في العهد القيصري، وهي جائزة "بوشكين" في عام ١٩٠٣ عن ديوانه "سقوط أوراق الشجر"، ونال الجائزة ذاتها للمرة الثانية في عام ١٩٠٩ عن الجزئين الثالث والرابع من مجموعة مؤلفاته الكاملة.، وانتخب على إثرها عضواً فخرياً في اكاديمية العلوم الروسية. وظل طوال حياته الأبداعية يكتب الشعر أحياناً، ولكنه معروف في المقام الأول ككاتب قصصي من طراز رفيع. ويشكل مدرسة متميزة في فن القصة القصيرة، كسلفه العظيم أنطون تشيخوف.

ولد ايفان بونين في ٢٢ أكتوبر ١٨٧٠ وتوفي في ٨ ديسمبر ١٩٥٣. نال جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٣٣.

كــان هنــاك ضـــوء غــامض
يومض حتى منتصـــف الليــل

وفي البيت الخشبي ايضا، كان ثمة ضوء يومض وعاصفة ثلجية تهب، والريح تجرف الثلوج من على سطوح البيوت الخشبية، فتلتف كالدخان المتصاعد، وتضيء ما وراء الستارة القطنية الحمراء.

آه، يا لهــا من فتــاة معجزة،
تهرع للقــائي في ذلــك البيــت
في ســــــاعــــة أثـــــيرة
محــــلـــولـــة الجـــدائـــل

وهذا ايضا حدث لي. إبنة شماس في مدينة سيربوخوف، تركت عائلتها الفقيرة وجاءت الى موسكو للدراسة... وها أنا اصعد الى الشرفة الخشبية الأمامية المغطاة بالثلوج، وأسحب حلقة الجرس. الممدود نحو المدخل. الجرس يرن وراء الباب. اسمع وقع خطوات متقافزة تنزل من السلم الخشبي الشديد الانحدار.تفتح الباب، فتهب عليها رياح العاصفة، وعلى شالها، وبلوزتها البيضاء...

كنت أسرع الى تقبيلها وأحضنها وأصد الرياح عنها. ثم كنا نركض الى الاعلى في البرد القارس، وعتمة السلم، الى غرفتها الباردة ايضا، المنارة بمصباح نفطي، شاحب الضوء. الستارة الحمراء على النافذة، وتحتها منضدة عليها هذا المصباح. قرب الحائط سرير حديدي كنت القي عليها معطفي وسترتي، كيفما إتفق، وأخذها عندي، واجلسها على ركبتي، وانا جالس على السرير، واحس من خلال التنورة بجسدها، وبعظامها.

لم تكن ضفائرها محلولة، بل كان لها شعر أشقر مجعد، ووجه فتاة من عامة الشعب، شفاف من الجوع، وعيناها ايضا كانتا شفافتين فلاحيتين، وشفتاها رقيقتين، كالتي تكون عادة عند الفتيات الواهنات.

تــلــتصـــــق بشـــــفــاهــي
لــيــس عــلــى نحــو طــفــولي
بــل متوقــدة كــالنــاضــــجــات
وتهــمــس في أذني مــرتــعشـــــة
أسمــــع دعـــنـــا نهـــرب!

نهرب! الى اين وممن؟ يالروعة هذه السذاجة الطفولية " نهرب! ".

نحن لم يكن لدينا " نهرب " بل شفاه واهنة، هي احلى شفاه في الدنيا. ودموع تطفر من عيوننا من فيض السعادة. وبسبب الاجهاد المضني للجسدين الفتيين كان كل واحد منا يضع رأسه على كتف الآخر. وكانت شفتاها تشتعلان، كما في القيظ. عندما كنت أفك أزرار بلوزتها، وأقبل الصدر الحليبي البكر بحلمتيها الصلبتين، غير الناضجتين وعندما تستعيد وعيها، تقفز وتشعل الطباخ الكحولي، وتسخن الشاي فنشربه، ونحن نأكل الخبز الأبيض مع الجبنة ذات الغلاف الاحمر، ونتكلم دونما نهاية عن مستقبلنا، ونحس كيف إن الرياح الباردة المنعشة تهب وراء الستارة، ونسمع تساقط الثلوج على النافذة:

" في شارع معروف أتذكر منزلاً قديماً".

ماذا أذكر ايضا؟ أذكر أنني ودعتها في ربيع تلك السنة في محطة قطار كورسك. كيف اسرعنا الى الرصيف مع سلتها المصنوعة من الصفصاف،

وبطانيتها الحمراء الملفوفة والمشدودة بالأحزمة، ركضنا بمحاذاة القطار الطويل، الذي كان على وشك التحرك، اذكر كيف صعدت أخيرا الى مدخل احدى العربات، ونحن نتحدث قبل الوداع، ونقبل ايدي بعضنا البعض، وكيف وعدتها باللحاق بها في سيربوخوف بعد أسبوعين.

لا أذكر أي شيء بعد ذلك.

ولم يكن هناك شيء بعد ذلك أبداً.

# الشاعر والسلطة

## ايفو اندريتش*

في الزمن الذي كانت تحكم فيه الإمبراطورة اوو –يونغ، حُكم على الثلاثمائة وخمسين متآمرا بالإبعاد، وكان الشاعر موري ايبو واحدا منهم. على مدى ثلاثة أعوام عاش في بيت من القصب على أصغر جزيرة من بين الجزر السبع. لكن في الأثناء سقطت الإمبراطورة اوو–يونغ مريضة، لتعاين أن سلطتها تضعف وتتدهور يوما بعد آخر.ومثل الثلاثمائة وخمسين، خاطر موري ايبو بوضع حد لإبعاده وعاد الى ايدو ليقيم غير بعيد عن المدينة في معبد خصص له الكهنة جناحا فيه.

والمواطنون الذين أغاظتهم السلطة الدموية لامبراطورتهم القاسية والمسعورة، أظهروا حبهم وتقديرهم للشاعر الذي كان قد أضحى الرفيق الملازم للثلاثمائة وخمسين. وكان هؤلاء ينقلون من يد الى يد أخرى مقطوعاته الشعرية الصغيرة عن الشجاعة وعن الموت. وكانت لآبتسامته المشرقة الكلمة الأخيرة في نقاشاتهم.ثم جاء يوم فيه توفيت فجأة الإمبراطورة مسمّمة

* ولد إيفو أندريتش في قرية دولاتس التابعة لمدينة ترافنيك في جمهورية البوسنة والهرسك، في ٩ أكتوبر ١٨٩٢، فقد والده وهو ابن عامين وأنهى دراسته الثانوية بصعوبة في مدينة سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك درس الأدب ثلاث مرات في زغرب ثم في فيينا ثم في بولندا ومثل يوغوسلافيا كدبلوماسي في أكثر من عشر مدن وعواصم أوروبية.

روائي وشاعر وكاتب قصص قصيرة، نال جائزة نوبل في الأدب في عام ١٩٦١

توفي ١٣ مارس ١٩٧٥

بالحقد الذي كانت تغذيه مثيرة دهشة الجميع.والمقربون من حاشيتها فرّوا، تاركين إيّاها منتفخة، ممددة على سريرها، وحيدة في قصرها الفارغ، ولا أحد كان مهتما بدفنها.

وبعد جلسة طارئة، سيطر الثلاثمائة وخمسون على السلطة، وتقاسموا المراتب والأوسمة ونشروا سلطتهم على كامل الجزر السبع. لكن عندما أراد الثلاثمائة وخمسون عقد أول آجتماع في قصر الإمبراطورة الراأحلة، تبين لهم أن الشاعر موري ايبو لم يكن بينهم. لذلك رفضوا عقد الجلسة من دونه، وأرسلوا عبدا وعربة لجلبه. لكن بعد مضيّ وقت قصير عادالعبد بالعربة فارغة معلنا أن الشاعر حسب ما يبدو له، سافر، تاركا رسالة موجهة الى الثلاثمائه وخمسين. عندئذ أمسك أكبرهم سنّا بالرسالة وفتحها ثم قدمها الى رئيس الكتبة ليقرأها.ففعل هذا الأخير ذلك بصوت عال:

موري ايبو في لحظة المغادرة يحيّي أصدقاءه، أعضاء المجلس!

وأنا أبارككم، يا رفاقي في الاختلاف، وفي العقيدة وفي النصر وأتوسل اليكم ان تغفروا لي عدم تقاسم السلطة معكم، مثلما تقاسمت النضال. غير أنّ الشعراء، عكس الناس الاخرين، لا يكونون اوفياء إلاّ في الشقاء وهو يتركون أصدقاءهم عندما تظهر لهم تباشير الثروة. نحن الشعراء خلقنا للنضال. نحن صيّادون متحمسون لا يتذوقون لحم الفريسة. والحاجز الذي يفصل بيني وبينكم يمكن الاّ يدرك بعين الإنسان العادي لشدة رهافته، لكن أليس نصل السيف المشحوذ جيدا رهيف هو أيضا، مع ذلك هو قاتل؟ لن يكون باستطاعتي أن أقفز فوق هذا الحاجز من دون مخاطرة إذ أنه بإمكاننا

أن نتحمل كل شيء إلاّ السلطة. لهذا السبب أنا أترككم يا أعضاء المجلس، يا رفاقي القدماء، سأمضي عبر العالم بحثا عن مكان اعثر فيه على فكرة غير مكتملة أو لم تكتسب بعد. وبالنسبة لكم، احكموا،وأنا أتمنى لكم النجاح، والحكمة،ولكن إذا ما جاء يوم وعاد البؤس الى جزرنا السبع،وإذا ما أنتم احتجتم الى يد لتشارككم النضال، أو الى قلب ليواسيكم،فلا تغفلوا عن طلبي رجاء"

بعد هذه الكلمات، قطع رئيس المجلس الذي كان يعاني من صعوبة في السماع، قراءة الرسالة وأعلن بصوت متعب، وبهيجان الشيخ الفاقد للصبر:

–أي بؤس يمكن أن يهدد امبراطورية تُسيّر شؤونها الحكومة الشرعية والليبيرالية للثلاثمائة وخمسين؟

الجميع وافقوا بإشارة من الرأس. والاقدمون منهم تبادلوا ابتسامات تنمّ عن الإحتقار والشفقة. "البؤس حقّا!". ومن دون اكمال قراءة الرسالة، انتقل أعضاء المجلس الى التصويت على قوانين التجارة الخارجية.

وحده رئيس الكتبة الذي قرأ حتى آخر سطر من الرسالة، طوى صفحاتها، ومن دون ان ينطق بكلمة، حملها الى أرشيف الإمبراطورة الراحلة.

# بائعة الورد

## جابرييل جارسيا ماركيز*

في غبشة الفجر تحسست مينا طريقها، كانت ترتدي ثوبها القصير الأكمام الذي كانت قد علقته في الليلة الماضية قرب الفراش، وبحثت في الصندوق الكبير عن الكمين المنفصلين قبل الذهاب إلى الكنيسة، ثم بحثت عنهما فوق المسامير المعلقة على الحائط وخلف الأبواب، وهي حريصة ألا تحدث أقل جلبة لكيلا توقظ جدتهما العمياء، التي كانت نائمة في نفس الغرفة، ولكن ما أن اعتادت عيناها العتمة، حتى لاحظت أن جدتها قد نهضت من الفراش، فذهبت إليها في المطبخ لكي تسألها عن الكمين.

قالت الجدة العمياء:

– هما في الحمام.. إنني غسلتهما أمس بعض الظهر..

وفعلاً وجدتهما في المطبخ، معلقين من سلك ممدود بمشبكين.. ولكنهما

---

* جابرييل خوسيه دي لا كونكورديا جارسيا ماركيز: (٦ ولد في مارس ١٩٢٧ – ١٧ وتوفي يوم ابريل ٢٠١٤ عن عمر ناهز ٨٧ عامًا.)، يعرف باسم جابرييل جارسيا ماركيز روائي وصحفي وناشر وناشط سياسي كولومبي ولد في أراكاتاكا، ماجدالينا في كولومبيا، عاش أغلب عمره في المكسيك وأوروبا. ويعد غارثيا ماركيث من أشهر كتاب الواقعية السحرية، فيما يعد عمله مئة عام من العزلة هو الأكثر تمثيلًا لهذا النوع الأدبي.

حصل ماركيز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢ كما فاز بالعديد من الجوائز والأوسمة طوال مسيرته الأدبية مثل وسام النسر الأزتيك في عام ١٩٨٢، وجائزة رومولو جايجوس في عام ١٩٧٢، ووسام جوقة الشرف الفرنسية عام ١٩٨١.

كانا لا يزالان مبتلين.. فعادت مينا بهما إلى المطبخ وبسطتهما فوق أحجار الموقد.. وكانت الجدة العمياء تقلب القهوة وقد سمرت حدقتي عينيها الجامدتين على جدار الشرفة التي رصت فيها أصص الزهور مليئة بأعشاب طيبة..

قالت لها مينا: لا تأخذي أشيائي مرة ثانية.. لا يمكنك هذه الأيام أن تتأكدي من طلوع الشمس..

حركت المرأة العمياء وجهها نحو الصوت وقالت:

– إنني نسيت أن هذا يوم الجمعة الأول من أسبوع الفصح، موعد القداس..

وبعد أن تأكدت الجدة بنفس قوي من فمها أن القهوة نضجت، رفعت الإناء عن الموقد، ثم قالت:

– ضعي قطعة من الورق تحت الكمين، لأن أحجار الموقد متسخة.

أجرت مينا أصابعها على أحجار الموقد.. فوجدها متسخة فعلاً، ولكن بطبقة من السناج المتحجر الذي لا يمكن أن يلوث الكمين إذا لم يحتكا بالأحجار.. على أنها قالت لجدتها:

– إذا اتسختا فستكونين أنت المسؤولة!..

وما لبثت الجدة العمياء أن صبت لنفسها قدحاً من القهوة، وقالت وهي تجذب مقعداً شطر الشرفة:

– أنت غاضبة.. ومن المحرم أن يذهب الانسان للقداس وهو غاضب...

وجلست لشرب القهوة عن كثب من الزهور في الحوش.. وعندما انبعث رنين دقات الناقوس الأولى إيذاناً بموعد القداس رفعت مينا الكمين عن الموقد، فكانا لا يزالان مبتلين.. بيد أنها لبستهما.. فإن القس لا يرضى دخول أحد إلى الكنيسة بثوب عاري الذراعين.. ثم مسحت آثار الأحمر من وجهها بمنشفة، وأخذت كتاب الصلاة والشال من غرفتها، وخرجت للشارع...

وبعد ربع ساعة عادت أدراجها ...

فقالت الجدة العمياء وهي جالسة في مواجهة الزهور في الحوش:

– سوف تصلين إلى هناك بعد القراءة الأولى..

أما مينا فقالت وهي تتجه إلى دورة المياه:

– لن أتمكن من الذهاب إلى القداس اليوم.. الأكمام مبتلة، والثوب كله "مكركش"..

وعلى الأثر شعرت بعينين فاهمتين تتبعانها..

وما لبثت العجوز أن هتفت: يوم الجمعة الأول ولا تذهبين للقداس!..

ولما عادت مينا من دورة المياه صبت لنفسها قدحاً من القهوة وجلست في المدخل المطلي بالمصيص الأبيض عن قرب من العجوز العمياء.. بيد أنها لم تستطع أن تشرب القهوة.. وغمغمت في سخط كامن وهي تشعر بأنها توشك على الغرق في دموعها الحبيسة:

– أنت السبب!..

فهتفت العجوز العمياء: أنت تبكين!..

وأضافت وهي تمر قرب جدتها بعد أن وضعت قدح القهوة على الأرضية: يجب أن تذهبي للاعتراف لأنك جعلتني أضيع قداس يوم الجمعة الأول!..

أما الجدة العجوز فقد لزمت مكانها جامدة تنتظر أن تغلق باب غرفة النوم.. وما لبثت أن اتجهت إلى آخر الشرفة ثم انحنت تتحسس حتى عثرت على قدح القهوة على الأرض غير مشروب.. فقالت وهي تسكب القهوة في الإناء الخزفي:

– الله يعلم أن ضميري مستريح..

وفي هذه اللحظة خرجت أم مينا من غرفة النوم، وقالت للعجوز:

– مع من تتكلمين؟..

فأجابت: مع نفسي!.. قلت لك قبل الآن انني في طريقي إلى الجنون!..

وعندما احتجبت مينا في غرفتها فكت أزرار"المشد" وأخرجت ثلاثة مفاتيح صغيرة معلقة في مشبك.. ففتحت بأحدها الدرج السفلي في "التواليت" وأجرت منه علبة متوسطة فتحتها بمفتاح آخر.. ومن داخلها أخرجت مجموعة خطابات مكتوبة على ورق ملون ومربوطة بحزام من المطاط.. فأخفت الخطابات داخل مشدها ثم أعادت العلبة إلى مكانها وأغلقت الدرج.. وأخيراً ذهبت إلى دورة المياه وألقت بالرسائل في المرحاض..

ولما رجعت مينا إلى المطبخ قالت لها أمها:

– حسبتك في الكنيسة..

فتولت الجدة العمياء الرد قائلة: لم تتمكن من الذهاب.. أنا نسيت أن هذا يوم الجمعة الأول، وغسلت الأكمام بعد ظهر أمس..

فغمغمت مينا: انها لا تزال مبتلة..

فقالت العجوز العمياء: انني أقوم بأعمال كثيرة هذه الأيام..

و قالت مينا: وأنا مطالبة بتسليم مائة وخمسين "دستة" ورد لمناسبة عيد الفصح..

ولم تلبث حرارة الشمس أن تزايدت مبكراً.. وقبل الساعة السابعة كانت مينا قد أعدت "مشغل الورد الصناعي" في غرفة المعيشة: سلة مليئة بأوراق الورد، ولفافة سلك، وعلبة من ورق الكريب، ومقصان، وبكرة خيط، وإناء به غراء.. وبعد برهة جاءت ترينيداد التلميذة المترهبة في الكنيسة تحمل علبة كرتون تحت إبطها، وسألتها على الفور لم لمْ تذهب لحضور القداس.. فأجابت مينا:

– لم تكن الأكمام جاهزة..

فقالت ترينيداد: كان يمكن استعارة كمين من أي أحد..

وجذبت كرسياً وجلست قرب سلة أوراق الورد.. فقالت مينا:

– وجدتني متأخرة كثيراً..

وفرغت من صنع وردة.. فوضعت ترينيداد علبة الكرتون على الأرض واشتركت في العمل.. فنظرت مينا إلى العلبة قائلة:

– هل اشتريتِ حذاءً جديداً؟

فأجابت ترينيداد: هي فئران ميتة..

ولما كانت ترينيداد ماهرة في تركيب أوراق الورد، فقد تفرغت مينا لعمل سيقان من السلك مغلفة بورق أخضر.. وظلت كلتاهما تعمل في صمت دون أن تلاحظا تقدم الشمس في غرفة المعيشة، التي كانت مزخرفة بصور تزينية وعائلية.. وعندما تفرغت مينا من صنع السيقان تحولت إلى ترينيداد بنظرة تفيض أسى، فكفت هذه عن العمل وقالت لها:

– ماذا جرى؟

فمالت مينا نحوها وقالت: إنه رحل!..

فألقت ترينيداد المقص في حجرها قائلة: لا ... لا تقولي هذا!؟؟

فكررت مينا كلماتها قائلة: إنه رحل!..

فحدقت ترينيداد فيها طويلاً، وقالت مقطبة: والآن؟..

فأجابت مينا بصوت ثابت: الآن لا شيء..

وقبيل الساعة العاشرة تأهبت ترينيداد للانصراف، فاستمهلتها مينا لكي تلقي الفئران في المرحاض، وفي طريقها مرت بالعجوز العمياء التي كانت تستقي الزهور في الأصص، فقالت لها مينا:

– أراهن أنك لن تعرفي ما بداخل هذه العلبة..

وهزت العلبة بالفئران ... فأرهفت العجوز حواسها، قائلة:

– هزيها مرة ثانية ...

فكررت مينا العملية، بيد أن العجوز لم تستطع أن تتعرف على ما بداخل العلبة رغم هزها مرة ثالثة، فقالت مينا:

– هي الفئران التي وقعت في المصيدة في الكنيسة الليلة الفائتة.

وعندما عادت أدراجها مرت بجانب الجدة العمياء دون أن تكلمها.. بيد أن العجوز تبعتها إلى غرفة المعيشة لكي تستكمل مينا عملية الورد الصناعي، وقالت لها:

– يا مينا.. إذا أردت أن تكوني سعيدة، فلا تعترفي بشيء لشخص غريب عنك..

تطلعت إليها مينا دون أن تتكلم.. فجلست الجدة العجوز في المقعد المواجه لها محاولة أن تساعدها في العمل. بيد أن مينا استوقفتها..

فقالت الجدة العمياء: أنت عصبية.. لماذا لم تذهبي إلى القداس؟..

– أنت تعرفين السبب أكثر من غيرك..

فقالت العجوز العمياء: لو كان السبب الأكمام، لما فكرت في الخروج من البيت.. هناك شخص كان ينتظرك في الطريق، وهو الذي سبب لك الشعور بخيبة الأمل..

مرت مينا بيديها أمام عيني جدتها، كأنما تمسح لوحاً غير مرئي من الزجاج، وقالت:

– أنت ساحرة!..

فقالت المرأة العمياء: إنك ذهبت إلى دورة المياه مرتين هذا الصباح على غير عادتك.

استمرت مينا في استكمال الورد الصناعي، بينما عادت العجوز تقول:

– هل تجسرين على أن تريني ما تخفينه في درج "التواليت"؟..

فتركت مينا الوردة التي بيدها متمهلة وأخرجت المفاتيح الثلاثة الصغيرة من مشدها ووضعتها في يد العجوز قائلة:

– اذهبي وانظري بعينيك ...

فجعلت العجوز تفحص المفاتيح بأناملها، وقالت:

– إن عيني لا يمكنها الرؤية في قاع المرحاض!..

رفعت مينا رأسها، وعندئذ اعتراها إحساس مختلف.. فقد شعرت أن الجدة العمياء عرفت انها تتطلع إليها.. ولهذا قالت لها:

– انزلي في المرحاض إذا كان ما افعله يهمك إلى هذه الدرجة!..

تجاهلت الجدة العجوز هذا الرد اللاذع، وقالت:

– أنت دائماً تجلسين في الفراش وتكتبين حتى الصباح المبكر..

فقالت مينا: أنت نفسك تطفئين النور قبل النوم..

فعاجلتها العمياء قائلة: وفي الحال تنيرين أنت بطاريتك.. وبإمكاني أن أعرف أنك تكتبين، من صوت انفاسك

بذلت مينا جهداً للاحتفاظ بهدوئها، وقالت دون أن ترفع رأسها:

– جميل.. ولنفرض أن هذا هو ما يحدث، فما هو الغريب في ذلك؟..

فردت العجوز قائلة: لا شيء.. إلا أن هذا أضاع منك حضور قداس يوم الجمعة الأول..

وعند هذا الحد حملت مينا بكلتي يديها بكرة الخيط والمقصين وكومة من الورود التي لم تتم، وألقت بها جميعاً في السلة، ثم واجهت الجدة العمياء قائلة:

– هل تحبين أن أقول لك ماالذي ذهبت لكي أفعله في المرحاض؟

وظلت الإثنتان متحفزتين إلى أن تولت مينا الرد بنفسها، قائلة:

– ذهبت لكي آتي ببعض المخلفات!..

وعندئذ طوحت الجدة العمياء بالمفاتيح الصغيرة في السلة، وغمغمت قائلة وهي تتجه إلى المطبخ:

– كان يمكن أن يكون سبباً لا بأس به، وكان يمكن أن تقنعيني لولا أنها المرة الأولى في حياتك التي سمعتك فيها تشتمين!..

وفي هذه اللحظة كانت أم مينا آتية في الممشى من الناحية المقابلة محتضنة كومة من الورود الشائكة، وقالت:

– ماذا جرى؟..

فتولت الجدة العمياء الرد قائلة:

– إنني جننت.. لكن الظاهر أنكم لا تفكرون في إرسالي إلى مستشفى المجانين طالما لا أرمي أحداً بالحجارة!..

# الأفعى

## جون شتاينبك*

كان الوقت ظلاما تقريبا عندما قام الطبيب الشاب فيليبس بوضع كيسه على كتفه وغادر البركة في جزرها، تسلق أعلى الصخور وخاض على طول الشارع في حذائه المطاطي. أضواء الشارع كانت مضاءة وقت وصوله إلى مختبره التجاري الصغير في شارع مونتيري. كان بناء ضيقا صغيرا يقف جزئيا على أرصفة مياه الخليج وجزئيا على الأرض، في الجانبين تزاحمت معامل تعليب السردين.

---

* وُلد الروائي الأمريكي جون شتاينبك في وادي ساليناس في كاليفورنيا، في ٢٧ فبراير ١٩٠٢؛ لعائلة من الطبقة الوسطى المحافظة وكان الابن الثالث، والولد الوحيد بين أربعة أطفال، أشهر رواياته على الإطلاق، عناقيد الغضب، نشرت في عام ١٩٣٩. تحكي قصة عائلة بائسة من أوكلاهوما وسعيها لإقامة حياة جديدة في ولاية كاليفورنيا في ذروة الكساد العظيم، صوّر الكتاب الغضب والقلق الذي طال المواطن الأمريكي خلال تلك الفترة. في ذروة شعبيتها، بيعت حوالي ١٠ آلاف نسخة من رواية عناقيد الغضب أسبوعياً، العمل الذي حاز ستاينبيك بفضله على جائزة بوليتزر عام ١٩٤٠. وقد فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٢، وأعلنَ في خطاب تسلُّمه للجائزة هدفَه كروائي بِقَوله: ((إن المهمة الأساسية للكاتب لَم ولن تتغيَّر، فواجبه أن يُظهِر أخطاءنا المؤلمة، وفشلنا في التركيز على أحلامنا الجريئة، بهدف الإصلاح)).

يُعتبَر شتاينبك واحداً من أكثر الروائيين الأمريكيين شعبيةً وشُهرة، وكان لأعماله تأثير عميق في مجتمعه. وحُوِّلت مُعظَم رواياته إلى أفلام سينمائية لاقت نجاحاً كبيراً. حيث حُوِّلت رواية عناقيد الغضب إلى فيلم شعبي في ١٩٤١. وحُوِّلت رواية " شرق عدن " (١٩٥٢) إلى فيلم في عام ١٩٥٥، مِن بطولة الممثل جيمس دين.

توفي جون ستاينبيك في مدينة نيويورك في ٢٠ ديسمبر من عام ١٩٦٨ نتيجة لإصابته بمرض قلبي وعائي، وبقصور قلب احتقاني، عن عمر يناهز ٦٦ عامًا.

الدكتور فيليبس تسلق الدرجات الخشبية وفتح الباب، الجرذان البيضاء في أقفاصها ركضت أعلى وأسفل السلك والقطط الأسيرة في سجنها ماءت تطلب الحليب. أشعل الضوء فوق طاولة التشريح ووضع كيسه الرطب على الأرض، مشى تجاه الأقفاص الزجاجية بجانب النافذة حيث تعيش الأفاعي المجلجلة، انحنى ونظر إلى الداخل.

الأفاعي كانت متكومة على نفسها ترتاح في زوايا القفص ولكن كل رأس بدا واضحا، العيون المغبرة بدت وكأنها تنظر إلى لا شيء، ولكن حالما انحنى الشاب فوق القفص، بدأت الألسنة المتشعبة السوداء في الأطراف والوردية في الخلف ترتعش خارجا وتتحرك ببطء أعلى وأسفل إلى أن ميزت الأفاعي الرجل وسحبت ألسنتها داخلا.

خلع الدكتور فيليبس معطفه الجلدي وأضرم نارا في الموقد الضيق، وضع قدرا من الماء على الموقد وأسقط علبة فاصولياء في الماء ثم وقف محدقا في الكيس على الأرض. كان رجلا شابا مهملا بعينين لطيفتين مشغولتين كعيني من اعتاد النظر خلال المجهر لفترة طويلة، كان لديه لحية شقراء خفيفة.

التيار الهوائي ركض يتنفس عبر المدخنة ولمحة من الدفء قدمت من الموقد، الموجات الصغيرة غسلت الأرصفة تحت البناية. مرتبة في رفوف في الغرفة، كانت هناك طبقة فوق أخرى من جرار المتحف التي تحوي العينات البحرية المحمولة التي يتعامل بها المختبر.

فتح الدكتور فيليبس بابا جانبيا ودخل إلى غرفة نومه، خلية تحتوي على سرير عسكري، ضوء قراءة وكرسي خشبي غير مريح. سحب حذائه

المطاطي وارتدى خفين مصنوعين من جلد الغنم وعندما قفل عائدا إلى الغرفة الثانية كان الماء في الإبريق قد بدأ يهمهم.

رفع كيسه إلى الطاولة تحت الضوء الأبيض وأفرغ دزينتين من نجوم البحر استلقت بجانب بعضها البعض على الطاولة. عيناه المشغولتان استدارتا تجاه الجرذان المشغولة في الأقفاص السلكية. أخذ حبوبا من كيس ورقي وصبها في معالف الطعام وحالا انزلقت الفئران عن الأسلاك ونزلت على الطعام.

زجاجة حليب على رف زجاجي بين إخطبوط صغير محنط وسمكة هلامية، رفعها الدكتور فيليبس وسار باتجاه قفص القطة ولكنه قبل أن يملأ الآنية وصل القفص وبلطف التقط قطة صغيرة ممشوقة مبقعة، شد عليها للحظة ثم أسقطها في صندوق صغير مطلي بالأسود، أحكم الغطاء وأغلق المزلاج ثم أشعل المشعل الذي نفث الغاز في غرفة القتل، وبينما الكفاح الناعم القصير مستمر داخل الصندوق الأسود، ملأ الصحون بالحليب، إحدى القطط تسلقت يده فابتسم وداعب عنقها. الصندوق كان هادئا الآن فأطفأ المشعل لأن الصندوق امتلأ بالغاز.

على الموقد، كان قدر الماء يغلي باهتياج حول علبة الفاصوليا، رفع الدكتور فيليبس العلبة بواسطة زوج من الكلابات، فتحها وأفرغ الفاصوليا في صحن زجاجي. راقب نجم البحر على الطاولة بينما كان يأكل. من بين أشعته، قطرات قليلة من سائل حليبي كانت تنتشر في كل اتجاه.

عندما فرغ من تناول الفاصوليا وضع الصحن في الحوض وخطا إلى خزانة المعدات، تناول منها مجهرا ومجموعة من أطباق العدسات الصغيرة،

ملأ الأطباق واحدا تلو الآخر من أنبوب نزع سدادته يحتوي على ماء البحر ثم رتبها في صف بجانب نجم البحر، أخذ ساعته وألقاها على الطاولة تحت الضوء الأبيض المنسكب. الأمواج تحركت بتنهدات صغيرة تجاه الدعائم تحت الأرضية.

تناول قطارة من أحد الأدراج وانحنى على نجم البحر، في تلك اللحظة كان هناك خطوات ناعمة على الدرجات الخشبية وطرق قوي على الباب. تجهم وانطباع من الضيق عبر وجه الشاب وهو ذاهب ليفتح. امرأة طويلة منحنية كانت تقف في طريق الباب، كانت ترتدي بدلة معتمة جدا، شعرها المسترسل الطويل المتدلي على جبهة منبسطة تعمّه الفوضى ذاك أن الريح كانت تهب عليه وتعبث به، عيناها السوداوان لمعت في الضوء القوي.

تكلمت بصوت ناعم حلقي: "هل يمكنني الدخول؟، أريد أن أتحدث معك".

"إني مشغول تماما الآن" – قال بنصف قلب. "علي أن أقوم بأشياء في موعدها"، ولكنه وقف بعيدا عن الباب، فدلفت المرأة الطويلة إلى الداخل.

– "سأظل هادئة إلى أن تستطيع الحديث معي".

أغلق الباب وأحضر الكرسي غير المريح من غرفة النوم، وقال معتذرا: "كما ترين، العملية قد بدأت وعلي أن أنهيها"، كان قد اعتاد أن يأتيه كثير من الناس يدخلون يسألون. فيلجأ للقليل من روتين الشروحات للعمليات الجارية. كان يمكنه قولها دون تفكير: "اجلسي هنا، خلال دقائق سأكون قادرا على الإصغاء لك".

انحنت المرأة الطويلة على الطاولة، بواسطة القطارة جمع الشاب السائل من بين أذرع نجم البحر لتبخ في وعاء من الماء وحرك الماء بلطف بواسطة القطارة وبدأ يتمتم في شروحاته:

"عندما تكون نجوم البحر ناضجة جنسيا فإنها تفرز المني والبويضات في حالة الجزر، باختيار عينات ناضجة وأخذها خارج الماء أهيأ لها ظرفا من المد المنخفض والآن خلطت المني بالبويضات ووضعت بعضا من المزيج في كل واحدة من زجاجات الساعة العشرة هذه. في غضون عشرة دقائق سأقتل تلك التي في الزجاجة الأولى بالمنثول، وبعد ذلك بعشرين دقيقة سأقتل المجموعة الثانية، ومجموعة أخرى كل عشرين دقيقة. ثم سأسيطر على العملية في مراحل وسأعرض السلسلة على شرائح المجهر للدراسة البيولوجية"، توقف قليلا وأضاف: "هل تحبين أن تتفرجي على المجموعة الأولى تحت المجهر؟".

- "لا، شكرا لك".

استدار بسرعة تجاهها، الناس عادة يحبون النظر خلال الزجاج، ولكن هي لم تكن تنظر إلى الطاولة نهائيا بل إليه هو. عيناها السوداوان كانتا عليه ولكنهما بدتا وكأنهما لا تريانه. لقد أدرك لم، فالقزحية كانت غامقة مثل البؤبؤ، وما من فاصل لوني بينهما، الدكتور فيليبس جرحت كبرياؤه من جوابها، فرغم أن إجابة الأسئلة تسبب له الشعور بالضجر، إلا أن قلة الاهتمام بما يفعل تستفزه، ورغبة في إثارتها كانت تتنامى بداخله.

"بينما أنتظر الدقائق العشرة الأولى لدي ما أفعله، بعض الناس لا يحبون رؤيته وربما من الأفضل لك أن تدخلي تلك الغرفة ريثما أنتهي".

– "لا"، قالت بنغمتها الناعمة المنبسطة، "افعل ما شئت، سأنتظر إلى أن تستطيع الحديث معي"

يداها استراحت بجانب بعضها البعض على حجرها، كانت مسترخية تماما. عيناها كانتا لامعتين ولكن باقي جسدها كان في حالة حركة مؤجلة. فكّر:" معدل أيض متدن كذلك الذي لدى الضفدع، من النظرات!"، الرغبة في هزها خارج جمودها تملكته ثانية.

أحضر إناء خشبيا هزازا إلى الطاولة، وضع المشارط والمقصّات وركب إبرة كبيرة مجوفة على أنبوب ضغط، ثم من غرفة القتل أحضر القطة المترهلة الميتة ووضعها في الإناء وربط أقدامها إلى خطافات في الجوانب، ألقى نظرة جانبية تجاه المرأة، لم تتحرك، ولم تزل في راحتها.

القطة كشخت في الضوء ولسانها الوردي كان عالقا بين أسنانها المدببة كالإبر. قص الدكتور فيلبس الجلد حول حلقها برشاقة، بواسطة مشرط أحدث شقا طوليا ووجد شريانا بواسطة تقنية لا تتطلب الصدع، وضع الإبرة في الوريد وربطها بالأحشاء.

"سائل تحنيط"، وشرح: "لاحقا سأحقن كتلة صفراء في النظام الوريدي وأخرى حمراء في النظام الشرياني من أجل تحليل الدورة الدموية – دروس بيولوجيا".

نظر جانبا تجاهها، عيناها بدت مملوءة غبارا، نظرت بدون أي تعبير على وجهها إلى حلق القطة المفتوح، ولا قطرة من الدم فرت والشق كان نظيفا. قال الدكتور فيليبس ناظرا إلى ساعة يده: "وقت المجموعة الأولى"،

وهز مجموعة من كريستالات المنثول في زجاج الساعة الأولى.

المرأة كانت تجعله عصبيا، الجرذان تسلقت أسلاك أقفاصها ثانية وصرت بصوت خافت، الأمواج تحت البناية ضربت الدعائم ضربات خفيفة، ارتعش الشاب، وضع قطعا من الفحم في الموقد وجلس، "الآن، ليس لدي ما أفعله لمدة عشرين دقيقة"، لاحظ كم كانت المسافة قصيرة بين شفتها السفلى وطرف ذقنها، بدت كمن يستيقظ على مهل ليأتي من بركة عميقة من الوعي. حركت رأسها وعينيها الغبراوين خلال الغرفة ثم عادت إليه.

– "كنت انتظر"، قالت ويداها ممددتان واحدة بجنب الأخرى على حجرها، " لديك أفاعي؟"

"لماذا، نعم"، قالها بصوت مرتفع، "لدي دزينتان من أفاعي الجرس، أستخرج منها السم وأرسله إلى مختبرات العقاقير ضد السموم".

استمرت بالنظر إليه ولكن لم تركز عليه، شملته بنظرها وبدت كمن ينظر في دائرة كبيرة حوله،

– "ألديك ثعبان ذكر؟ ثعبان مجلجل ذكر؟".

"حسنا يبدو أنه اتفق أني أعرف أنه لدي. جئت في أحد الصباحات ووجدت أفعى في الداخل– في حالة جماع مع أخرى أصغر، ذلك نادر جدا في الأسر، أترين، وهكذا أعرف أن لدي ثعبان ذكر".

– "أين هو؟"

"لماذا، في القفص الزجاجي بجانب النافذة هناك"، تأرجح رأسها حولها

قليلا لكن يديها الهادئتين لم تتحركا، استدارت ثانية نحوه: - "هل يمكن أن أراه؟"

نهض ومشى إلى القفص بمحاذاة النافذة، على القاع الرملي كانت عقدة الأفاعي تستلقي مجدلة ولكن رؤوسها كانت تبدو واضحة، الألسنة خرجت واضطربت للحظة ثم لوحت أعلى وأسفل تتحسس الجو والذبذبات فيه. أدار الدكتور فيليبس رأسه بعصبية، كانت المرأة تقف بمحاذاته، لم يسمع صوتها وهي تنهض من الكرسي، كل ما أحس به كان جلد المياه للدعائم وصرير الفئران على المنخل السلكي. قالت برقة:

- "أيها الذكر الذي تحدثت عنه؟"

أشار إلى ثعبان سميك بلون رمادي مغبر يستلقي بمفرده في إحدى زوايا القفص، "ذاك، طوله حوالي خمسة أقدام، أفاعينا في ساحل المحيط الهادي تكون أصغر عادة، وقد اعتاد أن يأخذ كل الجرذان أيضا، ولذا عندما أريد الآخرين أن يأكلوا يكون علي أن أخرجه بعيدا"

حدقت المرأة في الرأس الجاف عديم الحس، اللسان المتشعب انزلق خارجا وظل يرتعش للحظة طويلة، - "أنت متأكد من أنه ذكر؟"

"الأفاعي المجلجلة مسلية جدا"، قالها بعفوية، "فكل تعميم تثبت خطأه، لا أحب أن أقول شيئا قاطعا حول أفعى جرس، ولكن، نعم أستطيع أن أؤكد لك أنه أفعى ذكر".

عيناها لم تتحرك من الرأس المسطح، - " هل تبيعه لي؟"

"أبيعه؟"، صرخ، "أبيعك إياه!"

– "أنت تبيع العينات، اليس كذلك؟"

"أوه نعم، بالطبع أبيعها".

– "كم سعره؟ خمسة دولارات؟ عشرة؟"

"أوه، ليس أكثر من خمسة دولارات، ولكن هل تعرفين شيئا عن أفاعي الجرس؟، ربما تلدغين؟"

نظرت إليه للحظة: –"لا أنوي أخذه معي، سأتركه هنا ولكني أريده أن يكون لي، أريد أن أجيء إلى هنا وأنظر إليه وأطعمه، وأن أعرف أنه لي"، وفتحت جزدانا صغيرا وأخرجت ورقة خمسة دولارات، "هاك، الآن إنه ملكي".

بدأ الدكتور فيليبس يشعر بالخوف، "يمكنك أن تأتي وتنظري إليه بدون أن تملكيه"

– "أريده أن يكون لي"

"أوه يا الهي"، صرخ، "لقد نسيت الوقت"، وركض نحو الطاولة، "تأخرت ثلاثة دقائق، لن أبالي كثيرا"، هز كريستالات المنثول في زجاجة الساعة الثانية ثم انسحب عائدا إلى القفص حيث كانت المرأة لا تزال تحدق في الثعبان. سألت: – "ماذا يأكل؟"

"أنا أطعمهم جرذانا بيضاء، من القفص الذي هناك في الأعلى".

– "هلا وضعته في القفص الآخر، أريد أن أطعمه".

"ولكنه لا يحتاج طعاما، لقد تناول جرذا هذا الأسبوع، والأفاعي قد لا تأكل لمدة ثلاثة أو أربعة شهور، كان لدي واحدة لم تأكل لما يزيد عن السنة"، بنغمتها المنفردة سألت: - "هل تبيعني جرذا؟"، هز كتفيه بلا مبالاة: "فهمت، تريدين أن تراقبي كيفية أكل الأفاعي المجلجلة، حسنا، سأريك، الجرذ سيكلفك خمسة وعشرين سنتا، ذاك أفضل من مصارعة ثيران إن نظرت إليه بطريقة ما، وهو ببساطة ثعبان يتناول عشاءه إن نظرت إليه بطريقة أخرى"

لهجته أصبحت لاذعة، هو يكره الناس الذين يجدون الرياضة في صراع المخلوقات الحية. لم يكن رجل رياضة وإنما عالما بيولوجيا يمكنه قتل ألف حيوان لأجل المعرفة ولكنه لا يقتل ولو حشرة من أجل المتعة. هذا ما كان قد استقر في ذهنه منذ أمد.

أدارت وجهها ببطء نحوه وبداية ابتسامة تشكلت على شفتيها الرقيقتين، - "أريد أن أطعم ثعباني، سأضعه في القفص الآخر" وفتحت غطاء القفص العلوي وأنزلت يدها لداخله قبل أن يدرك ما كانت على وشك أن تفعل، قفز إلى الأمام وسحبها إلى الخلف فارتطم غطاء القفص وأغلق.

"ألا تعقلين؟"، سأل بشراسة، "ربما ما كان ليقتلك ولكنه كان سيصيبك بالمرض رغم كل ما يمكنني أن أفعل من أجلك".

- "ضعه أنت في القفص الآخر"، قالت بهدوء. الدكتور فيليبس كان مصدوما، اكتشف أنه كان يحاول تجنب العينين المظلمتين اللتين لم تكونا تنظران إلى شيء. شعر بأن وضع جرذ في القفص خطأ بيّن، بل وإثم كبير،

ولم يعرف لماذا. عادة كان يضع الجرذان في القفص عندما يريد شخص أو آخر رؤية ذلك، ولكن هذه الرغبة اليوم أشعرته بالمرض، حاول أن لا يعلل السبب كثيرا.

"إنه أمر جيد للرؤية، يريك كيف تعمل الأفعى، ويجعلك تقدرين أفعى الجرس، وهكذا أيضا كثيرون يصابون برعب الأفاعي القاتلة لأن الجرذ ذاتي، بمعنى أن الشخص هو الجرذ، أما عندما تنظرين إلى الأمر كله بموضوعية فالجرذ مجرد جرذ والرعب يختفي".

أخذ عصا طويلة مزودة بأنشوطة جلدية من على الجدار، فتح الشرك وأسقط الأنشوطة حول رأس الثعبان وضيق السير الجلدي، أفعى جرس جافة حادة ملأت الحيز، الجسد السميك تلوى وتمسك حول مقبض العصا، رفع الثعبان وألقاه في قفص التغذية، وقف جاهزا للهجوم للحظة ولكن الطنين خبا شيئا فشيئا، زحف الثعبان إلى زاوية، كون رقم ثمانية كبير (٨) بجسده واستلقى بسكون.

"كما ترين، هذه الأفاعي أليفة تماما، إني أملكها منذ وقت طويل، وافترض أني قادر على مسكها إذا أردت ولكن كل من يمسك أفاعي الجرس يلدغ آجلا أو عاجلا، ولا أريد أن آخذ هذه الفرصة"، التفت تجاه المرأة للحظة كارها أن يضع الجرذ في الداخل، تحركت مقابل القفص الجديد، عيناها السوداوان كانت على الرأس الحجري الصقيل للثعبان مرة أخرى، قالت:-" ضع جرذا في الداخل".

على مضض اتجه إلى قفص الجرذان، لسبب ما كان يشعر بالأسف من

أجل الجرذ، وهو ما لم يشعر به من قبل، عيناه مرت فوق كتلة الأجساد البيضاء المحتشدة التي تتسلق المنخل المعدني باتجاهه. "أي واحد؟"، فكّر، "أي واحد منها سيكون؟"، وفجأة استدار غاضبا تجاه المرأة، "ألا تفضلين أن أضع قطة في الداخل؟ عندها ستشاهدين قتالا حقيقيا، بل وربما تفوز القطة ولكن إن فعلت فقد تقتل الثعبان، سأبيعك قطة إن رغبت!"

دون أن تنظر إليه قالت: –"ضع جرذا في الداخل، أريده أن يأكل".

فتح قفص الجرذان وغرز يده في الداخل، أصابعه أمسكت بذيل فرفع جرذا ممتلئ الجسم أحمر العينين من القفص كافح محاولا عض أصابعه إلى أن فشل وتدلى بلا حراك من ذيله. مشى بسرعة عبر الغرفة، فتح قفص التغذية وأسقط الجرذ على رمل القفص. صاح: "الآن راقبيه".

لم تجبه المرأة، عيناها على الثعبان الذي كان مستلقيا ساكنا ولسانه يرتعش داخلا خارجا بسرعة يتذوق هواء القفص. هبط الجرذ على أقدامه، استدار وتشمم حول ذيله العاري الوردي وباطمئنان هرول عبر الرمل متشمما، الغرفة كانت صامتة. والدكتور فيليبس لم يعرف إن كانت المياه هي من تنهد أم المرأة، وبزاوية عينه رأى جسدها ينحني ويتيبس.

الثعبان تحرك خارجا بنعومة، اللسان تحرك داخلا وخارجا، الحركة كانت متسارعة، ناعمة لدرجة أنه لا يبدو أن هناك حركة على الإطلاق. في الطرف الآخر من القفص كان الجرذ يتزين في وضع جلوس ويلعق الشعر الناعم الأبيض على صدره، تحرك الثعبان محافظا على انحناء مثل حرف "S" في عنقه. الصمت أثار الشاب فشعر بالدم يتدفق في جسده، وقال بصوت

عال:"أنظري إنه يحافظ على الانحناء الضارب جاهزا، أفاعي الجرس حذرة وأقرب للجبن، الآلية أنيقة جدا، عشاء الثعبان يتم تناوله بعملية رشيقة كعمل الجراح، لا يأخذ الاحتمالات في حسبانه".

انساب الثعبان نحو منتصف القفص حتى الآن، وقف الجرذ ورأى الثعبان وبلا مبالاة عاد للعق صدره. "إنه أجمل شيء في العالم"، قال الشاب وعروقه تنبض بقوة "إنه أكثر الأشياء فظاعة العالم".

الثعبان كان قريبا الآن، رأسه مرفوع بضع بوصات عن الأرض، رأسه يتموج ببطء إلى الوراء والأمام، كان يسدد ويأخذ مسافة، لمح الدكتور فيليبس المرأة، شعر بالغثيان، كانت تتموج هي الأخرى، ليس كثيرا، وإنما بشكل ضئيل.

الجرذ نظر إلى الأعلى ورأى الثعبان، سقط على أربعة أقدام واقفا ثم كانت الضربة، الرؤية تعذرت فقد كانت مجرد ومضة، ارتج الجرذ تحت ضربة غير مرئية وعاد الثعبان مسرعا إلى الزاوية التي قدم منها واستقر ولسانه يلعب بشكل مستمر.

"مدهش"، صرخ الدكتور فيليبس،" تماما بين عظام الكتف، المخالب لا بد وصلت القلب"

سكن الجرذ، متنفسا كرئة بيضاء صغيرة، وفجأة خفق في الهواء ووقع على جانبه، أقدامه ركلت بتشنج لثانية ثم مات. المرأة استرخت، استرخت بكسل.

"حسنا"، تساءل الشاب، "كان حماما عاطفيا، أليس كذلك؟"

أدارت عينيها الضبابيتين تجاهه، وسألت: "هل سيأكله الآن؟".

"بالطبع سيأكله. لم يقتله من اجل النشوة، قتله لأنه جائع".

زوايا فم المرأة انقلبت إلى الأعلى هازئة، نظرت ثانية إلى الثعبان وقالت:
-"أريد أن يراه يأكله".

للتو خرج الثعبان من زاويته مرة أخرى، لم يكن هناك اعوجاج هجوم في رقبته هذه المرة، ولكنه اقترب من الجرذ بحذر شديد، جاهزا للارتداد إلى الوراء في حالة هاجمه الجرذ، مس الجسد برفق بواسطة أنفه الكليل وانسحب شاعرا بالرضا لأنه ميت، قام الثعبان بتحسس الجرذ من الرأس إلى الذيل بواسطة ذقنه، بدا وكأنه يقيس الجسد ويقبله، أخيرا فتح فمه ووسع فكه على مفاصل الزوايا. الدكتور فيليبس وضع نصب عينيه ألا يلتفت تجاه المرأة، فكر، إن كانت تفتح فمها فسأشعر بالمرض والخوف، ونجح في إبقاء عينيه بعيدا.

ثبت الثعبان فكه حول رأس الجرذ وبتؤدة بدأ بابتلاع الجرذ، الفكين تحركا وكامل الحلق زحف ببطء واتسعت مفاصل الفك ثانية، الدكتور فيليبس استدار وذهب إلى طاولته ثانية، "لقد جعلت واحدة من السلسلة تفوتني"، قال بقسوة، "المجموعة لن تكون كاملة"، وضع واحدة من زجاجات ساعة اليد تحت مجهر قليل القوة ونظر إليها، ثم سكب كل محتويات الزجاجات بغضب في الحوض.

الأمواج انخفضت إلى همس رطب قادم من النافذة، الرجل الشاب أمسك بيت الفخ إلى قدميه وأسقط نجم البحر في المياه السوداء، توقف عند القطة التي انحنت وتجهمت بسخرية في الضوء، جسدها كان منتفخا بدم محنط، أوقف الضغط، سحب الإبرة وربط الأوردة.

"هل تشربين بعض القهوة؟"

– "لا، شكرا لك سأذهب حالا".

مشى إليها حيث وقفت أمام قفص الثعبان، الجرذ كان مبتلعا كله عدا بوصة من الذيل الوردي علقت خارجه كلسان ساخر. الحلق اتسع ثانية واختفى الذيل، مفاصل الفك عادت لمواقعها والثعبان زحف بتثاقل إلى زاويته، شكل رقم ثمانية كبير وألقى برأسه على الرمال.

– "إنه نائم الآن"، قالت المرأة، "إني ذاهبة، ولكني سأعود وأطعم ثعباني كل حين وسأدفع ثمن الجرذان، أريده أن ينال وفرة منها وفي بعض الأحيان سآخذه معي بعيدا"، عيناها رجعت من حلمها المغبر للحظة: "تذكر أنه لي، لا تأخذ سمّه، أريده أن يحتفظ به، ليلة سعيدة" ومشت بنعومة إلى الباب وخرجت، سمع وقع أقدامها على الدرج ولكن لم يسمع خطوها على حجارة الرصيف.

الدكتور فيليبس أدار كرسيا وجلس مقابل قفص الأفعى، حاول أن يمسد زوره وهو ينظر إلى الثعبان المخدر. "قرأت الكثير عن رموز الجنس السيكولوجية"، فكّر، "ولكني لا أفهم، ربما أني وحيد جدا، ربما علي أن أقتل الثعبان، لو أني أعلم، لا، لا.. لا يمكنني أن أصلي لأي شيء".

لأسابيع توقع عودتها، "سأخرج وأتركها وحدها هنا عندما تعود، لا أريد أن أرى الشيء اللعين ثانية". لم تعد ثانية أبدا، ولأشهر بحث عنها وهو يتجول في البلدة، مرارا ركض خلف امرأة طويلة ظانّا أنها هي، ولكنه لم يرها مرة أخرى إلى الأبد.

# عبر النفق

**دوريس ليسنج***

متوجها الى الشاطئ، في صباح أول يوم من أيام الإجازة، توقف الصبي الإنجليزي عند منعطف الطريق، ناظراً من مكانه العالي الى منخفض الخليج الصخري النائي المقفر، ثم أكمل سيره متمهلاً عبر الساحل المزدحم الذي يعرفه جيداً منذ سنوات عديدة، كانت أمه قد سبقته وهي تتمشى أمامه، تحمل حقيبتها ذات الخطوط اللامعة بإحدى يديها، وقد تركت الذراع الأخرى تتدلى على جنبها سائبة، بيضاء لا شيّة فيها، تحت الشمس الساطعة، نظر الصبي الى بياض، الذراع العارية، وأدار عينيه، بتقطيبة واضحة، نحو الخليج البعيد، ثم عاد للتطلع اليها ثانية، عندما شعرت أنه غائب في ذهنه عنها.

التفتت اليه (أوه، أنت هنا، ياجيري) قالت، وقد بدت عليها نظرة

---

* دوريس ليسينج ولدت تحت اسم دوريس ماي تايلر في ٢٢ أكتوبر عام ١٩١٩، وهي كاتبة وروائية بريطانية، وتعتبر السيدة الحادية عشر التي تحوز على الجائزة في فئة الأدب، وأكبر الفائزين عمراً في هذه الفئة. عاشت في ايران وروديسيا، درست في المدرسة الكاثوليكية في سالزبوري، وسرعان ما تركت الدراسة لتهتم بتثقيف نفسها ذاتيا، عملت كممرضة وعاملة سنترال، ومدافعة عنيدة عن حقوق المرأة وحريات الشعوب، كتبت روايتها الأولى (العشب يغني) عام ١٩٤٩، ولها ستون كتاباً مطبوعاً، كما كتبت العديد من الدراسات والبحوث عن أعمالها المنشورة وحياتها، أهم مؤلفاتها (أطفال العنف) (مذكرات من نجا) (المسير في الظل) (أجمل الأحلام) ولها رواية مسلسلة من الخيال العلمي، جربت لسنغ كل أساليب الكتابة الروائية، وأستلهمت ذكرياتها الأفريقية في معظم أعمالها، حازت على جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٧، وتوفيت في نوفمبر ٢٠١٣

توق، أعقبتها بأبتسامة (لماذا ياعزيزي، الا تفضل المجيء معي، ألا تريد صحبتي؟) تجهمت ملامحها من جديد، متعمدة بقلق بالغ تعرف السر الجاذب الذي توله به، حيث شغلها التفكير حوله بجد كبير، كانت تتملكه لهفة قد أستحوذت كيانه، وبأبتسامة معتذرة زائغة، عاود الركض خلفها من جديد وقد تملكه الندم، غير أنه ظل يتلفت عبر كتفيه الى الوراء نحو الخليج المقفر، وفي كل صباح، حينما يبدأ باللعب عند الساحل الآمن، لايتوقف ذهنه لحظة عن التفكير فيه.

صباح اليوم التالي، أوقات السباحة المعتادة والحمام الشمسي، قالت أمه (هل مللت من الشاطىء العادي، ياجيري؟ أتحب الذهاب الى مكان آخر؟)

(أوه، كلا.!) أجابها بسرعة متذرعاً بتلك الأبتسامة المشتاقة المندفعة المغمورة بقليل من الندم –كنوع من الأخلاق الفروسية، حينما كان يتمشى معها في الممرالصاعد، قال (أود الذهاب لألقاء نظرة على تلك الصخور تحت هناك).

أولت الفكرة بالغ عنايتها، كان المكان يبدو موحشاً، لايرتاده أحد، لكنها أجابت (بالتأكيد ياجيري، حينما تنتهي من هناك، تعال الى الشاطىء الكبير، أو توجه حال عودتك الى الفيللا مباشرة، أذا أردت) قفلت راجعة، شاهد تلك الذراع العارية، المتأرجحة، وقد تبدى عليها شيء من الأحمرار أثر شمس البارحة، حاول تقريباً أن يشرع في الركض خلفها مرة أخرى، بشعور لايحتمل، أنها ستذهب وحيدة، لكنه لم يفعل، وبقي ساكناً في مكانه.

فكرت هي، بالطبع قد كبر بما فيه الكفاية، أن يكون آمناً بدوني، أمن الضروري أن أجعله لصيقاً بي؟ يجب أن يبادر هو من ناحيته بالشعور بذلك، وعلي أن أكون حذرة في التعامل معه في هذا الشأن.

فهو مازال طفلاً، ليس له، إلا أحد عشر عاماً، وهي أرملة، لذا فقد قررت أن لاتدع الغيرة تتسلل الى قلبها، وأن لاتقلل من رعايتها له في الوقت نفسه. وبذا توجهت يساورها القلق الى شاطئها.

أما بالنسبة لجيري، فما أن أطمأن الى أن والدته قد وصلت الشاطىء، حتى شرع بالنزول الى المنحدر، من مكانه، حيث الصخور البنية الحمراء، كانت تنجرف ألوان الأزرق المخضر في المنطقة الهدبية بين الصخور ممتزجة مع البياض الناصع لمشهد البحر الواسع، وما أن توغل بالنزول، شاهدها تنفصل بين النتوءات والفتحات تحت العراء، والصخور القاسية وتجعدات السطوح الملتفة، وقد أصطبغت بالأزرق المعتم ولون الأرجوان.

أخيراً وما أن أستمر في الأنزلاق والعدو في نزوله للمسافة القليلة المتبقية، حتى شاهد الحافات البيضاء للموج في المنطقة الضحلة، مياه مضيئة متحركة فوق الرمال البيضاء اللامعة، الى جانب الأزرق القوي المندمج في شكل متوحد.

ركض قافزاً نحو الماء، مبتدئاً سباحته، كان سباحاً ماهراً، بعدها خرج ليرتمي فوق الرمال البراقة، في المنطقة التي أستلقت فوقها صخور تشبه مردة لالون لها تحت السطح المستوي، أخيراً هاهو في بحر حقيقي؛ بحر دافىء، حيث تيار البرودة المعتاد يتسلل بين المياه العميقة، مصطدماً بأطرافه من الأسفل.

حينما كان يتطلع من مكانه سابقاً نحو الخليج، لم يكن يرى الخليج الصغير وحده، بل النتوءات المتشعبة مابينه وبين الساحل الشاسع، عائماً على السطح المبهج راح ينظر الى مكان أمه، تلك هي، هناك، نقطة صفراء عائمة تحت مظلتها، كشريحة من قشر البرتقال، عاد سابحاً باتجاه الجرف، لكي يطمأن أنها مازالت هناك، لكنها في نفس الوقت كانت مستوحدة تماماً.

عند حافة الرأس الصخري، الذي وسم جانب الخليج البعيد حيث النتوءات المنتشرة والأحجار المتساقطة المتناثرة، كان هنالك عدد من الصبية، خلعوا ملابسهم، جاءوا يتراكضون، نازلين مع الجرف المنحدر، صوب الصخور، عراة كلهم، سبح الصبي الأنكليزي بأتجاههم، متحاشياً مرمى الأحجار، كانوا من مستوطني السواحل، صقلت ألوان بشرتهم باللون البني الداكن، يتكلمون لغة لايفهمها، ولذا فلن يستطيع التأقلم معهم، وأن كان في أشد التوق لذلك، متلهفاً بكل كيانه، سبح مقترباً منهم، استداروا نحوه وجعلوا يرقبونه بعيونهم السوداء الضيقة، المتوعدة، بعد ذاك أبتسم له أحدهم ورفع له يده محيياً، كان ذلك كافياً، أن يتشجع بالأقتراب أكثر، وما أن مرت دقائق حتى كان معهم في الجانب الصخري، تعلو محياه تلك الأبتسامة العصبية اليائسة المتضرعة، نادوه بتحيات مبتهجة، غيرأنه ظل محتفظاً بتلك الأبتسامة المتجاهلة، فكروا أنه أجنبي ضل الطريق الى مكان البلاج، تابعوا لعبهم متناسين وجوده، لكنه أحس بالمتعة بصحبتهم.

بدأوا في الغوص مرة بعد مرة، من أعلى نقطة على الجدار البحري المزرق، بين الصخور الخشنة، ذات النهايات المدببة، بعد أنتهائهم من الغطس وخروجهم من الأعماق، سبحوا من جديد، ساحبين أنفسهم خارجاً،

منتظرين دورهم في الغطس كرة أخرى، بدوا لجيري كفتية كبار، وجرب هو أن يغطس، فراحوا يراقبونه بفضول، وعندما عاد سابحاً لنقطتة، فسحوا له مكاناً بينهم، أشعره ذلك بتقبلهم له، مما جعله يعود الى الغوص من جديد، فخوراً بما حققه أمام نفسه.

حالاً أستعد أكبر الأولاد، ثم قفز أمامهم الى الماء، دون أن يظهر له أثر، بقي الآخرون ينتظرون خروجه مترقبين، بعد انتظار جيري لاندفاع الرأس الأملس البني من الماء، أطلق صيحة محذرة، راحوا ينظرون اليه متكاسلين، ثم عادوا يراقبون بأعينهم سطح الماء، بعد مرور وقت طويل، برز الصبي من الجهة الأخرى للصخور المعتمة الهائلة،

مالئاً رئتيه بالهواء، وهو يلهث مطلقاً صيحة النصر، فهرع الجميع في الحال غاطسين مرة واحدة في القعر، بلحظة أمتلأ بدردشتهم الصباح، بعدها كان الهواء وسطح الماء فارغين، ولكن خلال الزرقة الكامدة، كانت الأشكال السوداء تبين متلمسة طريقها في العتمات.

غاص جيري، ملقياً كل ذكريات المدرسة جانباً، تحت الماء، وبينما هو في غطسته لاح له جدار من الصخور السود، تلمسها، أثناء صعوده فوق الماء، كانت الصخور تشكل مانعاً واطئاً لم يتمكن من النظر خلاله، لم يعد يرى أحداً الى جواره، أو تحته، داخل الماء.

اختفت كل الأشكال السود السابحة المعتمة من حوله، بعدها برز أحد الأولاد وتبعه الآخرون في الجهة البعيدة من حاجز الصخور، فعرف حينذاك أنهم يسبحون عبر فجوات ودهاليز تتخلل الجدار.

هبط الى الأسفل تارة أخرى، فلم ير شيئاً بين ملوحة البحر اللاسعة غير الصخور الجرداء، حالما أخرج رأسه ثانية، كان الأولاد جميعا فوق صخرة الغطس، يهيؤون أنفسهم لمحاولة بطولية أخرى، في هذا الوقت، محاولاً مداراة محاولته الفاشلة، وخجله، صرخ جيري بالإنجليزية (أنظروا لي، أنظروا) وبدأ يرش من حوله الماء ويضرب بيديه مثل كلب أخرق.

نظروا اليه بفضول، بوجوه عابسة، بعبوس عرفه لحظات الخسارة، حينما يريد أن يسترعي أنتباه أمه بأدعاء بطولي، فيثير خوفها وقلقها لكي ينال بعدها تقطيبة جامدة بدلاً من المكافأة التي توقعها.

وأثناء لحظات خجله تلازمه تلك التكشيرة الغريبة كعلامة فارقة لايمكن أزالتها، نظر الى مجموعة الأولاد الكبار السمر فوق الصخرة منادياً بصوت عال:

(صباح الخير! شكراً! مساء الخير! مسيو، مسيو)

بينما كان يعلق أصابعه حول أذنيه، ويهزهما بشكل مضحك، أخذ الماء يندفع الى فمه، أختنق به، حتى كاد يغرق، طفا من جديد، الصخرة أمامه، قد خف وزنها أخيراً، وارتفعت مع الأولاد، خارج الماء، كأنها في حالة انعدام للوزن، مضوا كلهم طائرين من حوله، وسقطوا في الماء، الآن، أمتلأ الهواء بالأجساد الطائرة، وبقيت الصخرة خالية تماماً تحت أشعة الشمس الدافئة، أصبح يعد لهم مع نفسه، واحد، أثنان، ثلاثة.

عند الخمسين أصابه الهلع، لابد أن الجميع قد غرقوا، في الكهوف المائية للصخور! عند المئة، أخذ يحدق من حوله في جوانب التل، متسائلاً أن كان يتحتم عليه الصراخ طالباً العون، أمعن في العد سريعا، سريعاً، ليعجل

بحضورهم، ليقدموا الى السطح مسرعين: كل شيء بدلا من رهبة العد المستمر دون جدوى، في زرقة الصبح الخالي، عندما وصل في العد مئة وستين، أمتلأ سطح المياه ا لذي يحيط الصخرة بالأولاد السمر وهم ينفخون الماء بأفواههم النافورية كالحيتان، يعومون عائدين جهة الساحل دون أن يعيرونه اهتماما، تسلق صخرة الغطس، ثم أتخذ له مجلساً هناك، فأحس بخشونتها وحرارتها بين أفخاذه، تجمع الأولاد بعيداً،

ارتدوا ملابسهم واتخذوا طريقهم عبر الساحل نحو لسان آخر، غادروا مبتعدين، ما أن رأى اختفاءهم عن ناظريه، حتى أجهش بالبكاء، موجهاً قبضته نحو عينيه، دون أن يراه أحد، أسلم نفسه وحيداً لبكاء مرير.

بدا له أن وقتاً طويلاً قد مضى، فعاد سابحاً الى المكان الذي أستطاع فيه رؤية أمه، نعم مازالت هناك، لمح البقعة الصفراء تحت المظلة البرتقالية، سبح عائداً باتجاه الصخرة الهائلة، تسلقها، وعام ثانية في البركة بين الصخور الغاضبة النابية، نزل الى الأسفل حتى مس حائط الصخور ثانية، لكن الماء المالح تسبب بأذى عينيه حتى لم يعد بإمكانه رؤية شيء.

خرج إلى السطح، وتوجه سباحة صوب الشاطئ، عائداً إلى الفيلا منتظراً عودة والدته، شاهدها بعد حين تسير متمهلة صاعدة في طريق عودتها الى البيت، بحقيبتها المتأرجحة ذات الخطوط، وذراعها العارية المتدلية الى جانبها، تطلق لمعاناً تحت الضوء (أريد نظارات سباحة وقائية).

قال بصوت يمتزج فيه التحدي والتوسل معاً، حدجته بنظرة صابرة يشوبها الفضول، وأجابت بتلقائية

(حسن، بالتأكيد ياعزيزي).

ولكنه يريدها، الآن، الآن، الآن! يجب أن يحصل عليها وفي هذه اللحظة، وليس في وقت آخر.ظل متضايقاً ومنزعجاً حتى أصحبته الى المتجر، وحالما دفعت ثمنها، خطفها من بين يديها متلهفاً كما لو كانت ستحتفظ بهما لنفسها، ثم هرول مسرعاً نازلاً درجات الممر صوب الخليج.

عبر سباحة نحو الصخرة المانعة، أحكم نظاراته حول عينيه، ثم شرع بالغوص، لكن تأثير الملوحة كسر مرفقها المطاطي، فتسيب أحد أطرافها، كان يعرف أن عليه النزول من مكانه عند السطح حيث القعر الصخري، أصلح وضع النظارة وأعادها بأحكام حول عينيه، تنشق شهقة عميقة، وأدلى رأسه في الماء، الآن بإمكانه الرؤية جيداً، كأنما أمتلك عينين مختلفتين، لسمكة، كل شييء صار أمامه واضحاً، حساساً ومترددا في لمعة الماء.

تحته، على مبعدة ستة أو سبعة أقدام الى الأسفل، رأى الأرضية نظيفة تماماً، مغمورة بالرمل الأبيض البراق، تترقرق بقوة وثبات تحت الموج، كان شكلان رماديان يحومان هناك، وبعد فترة قصيرة، عبرت من فوق رأسه قطعة لوح خشبي، وسمكتان تشم أحداهما أنف الأخرى، وبرباطة جأش سكنتا في مكانهما بلا حراك، ثم أنطلقتا متجهتين قدماً، بعدها أنحرفتا في أستدارة طويلة، كما لو كانتا تؤديان رقصة تحت الماء، بضع بوصات من فوقهما كان الماء يطلق شرراً، يتساقط بأنحراف مضيىء على مختلف الجهات، أقبلت أعداد غفيرة من الأسماك الدقيقة بطول أضفار الأصابع، بدأت تلوح عائمة خلال الماء، وفي لحظات أحس بها تلامس بدقة بالغة أطرافه، وكما لو أنه

يخوض بحراً من الرقائق الفضية، شاهد الصخرة البحرية الهائلة التي كان الأولاد ينطلقون منها، تبزغ منحرفة بين الرمال البيضاء المسودة، فمرق بخفة بين حزم الأعشاب البحرية المخضوضرة، لم ير أية فجوة أمامه، توغل أكثر في الأعماق.

أرتفع أكثر من مرة نحو السطح، يملأ صدره بالهواء، ثم يقفل عائداً الى أغواره، وكرة أثر أخرى، كان يتلمس سطح الصخرة الماثلة، يتحسسها، يحتضنها بيأس حاجته لمنفذ

أثناء تعلقه بالجدار الداكن،، بعدها، صدفة، أثناء تعلقه بالجدار الداكن، وركبتاه تصعدان، أحس بقدميه وهو يدفعهما أمامه لاتصطدمان بأية عقبات، حينها عرف أنه قد عثر على الفتحة ضالته.

نال السطح من جديد، تسلق حول الصخور المتعرشة باحثاً عن حجرة ثقيلة، حتى أكتشف وجود واحدة كبيرة الحجم، أنزلق الى أحد الجوانب مع صخرته نحو الأسفل مستعملاً ذراعه، فوقع بكل ثقله مباشرة فوق الأرض الرملية، تعلق بشدة بمرساته الصخرية الثقيلة، أضطجع على جانبه متطلعاً أسفله الى الرف المظلم الذي دخلت فيه قدمه من قبل، فلاحت له الفتحة، فجوة غير طبيعية، لكنه لم يلمح لها عمقاً، ترك تشبثه بالنتوء، وتعلق بيديه في حواف الفتحة، محاولاً أقحام جسده الى الداخل.

أدخل رأسه بادىء الأمر، صافاً كتفيه جانباً الى صدره، لم يستطع رؤية شيء في الداخل، أحس بشيء دبق وناعم يلامس فمه، رأى سعفة سرخسية معتمة تتحرك بأتجاه الصخرة الرمادية، فأصابه الفزع، ظاناً أياها أخطبوطاً،

عبر الأعشاب العالقة زاحفاً بجسده الى الخلف ملقياً نظرة سريعة أثناء تراجعه، رأى حزم الأعشاب البحرية وهي

تطفوا عند فم النفق. غير أنه أستطاع الوصول الى ضوء الشمس الكافي، سبح حتى أدرك الشاطىء، وهناك أستلقى على صخرة الغوص، ناظراً الى زرقة الماء النقية من تحته، كان يعرف أن عليه أكتشاف ذلك الكهف أو الثقب أو النفق الذي سيؤدي الى الجانب الثاني، مهما كلفه الأمر.

فكر أولاً، أن عليه التحكم بأنفاسه، ترك نفسه تحت الماء مع حجرة كبيرة أخرى بين يديه كي يستطيع المكوث بشكل أسهل في القاع، أبتدأ يعد، واحد، أثنان، ثلاث، أخذ يعد بثبات، بإمكانه الآن سماع أية نأمة لمسرى الدم وسط صدره، أحدى وخمسون، اثنتان وخمسون، صار صدره يؤلمه، غادر الصخرة، أنطلق في الهواء المفتوح، كانت الشمس توشك على النزول، في الفيللا، وجد أمه تتناول عشاءها، فقط قالت (هل قضيت وقتاً ممتعاً؟) أجاب (نعم!).

أمضى ليلته يحلم بشلالات الضوء المائية داخل كهف الصخور، حالما أنهى فطور الصباح، حتى غادر متجهاً صوب الخليج.

أثناء الليل كان أنفه ينزف بشكل سيء، قضى ساعات تحت الماء، متعلماً كيف يكتم أنفاسه لمدة أطول، ما عادت لديه القدرة الأن، فداهمه شعور بالغثيان والضعف، قالت أمه (لو كنت مكانك يا عزيزي، لما كنت أبالغ بالأمر).

طوال اليومين التاليين، أستمر جيري في تمرينات الرئة، كما لو أنها كل شيء في حياته،

وكل مايبغي أن يكونه متوقف على هذه المسألة، وعاد أنفه الى النزف مرة أخرى وقت الليل، أصرت والدته أن يصحبها في الغد ويمضي الوقت معها، كان من الصعب عليه قضاء اليوم متخلياً عن الأهتمام بتمارينه، لكنه بقي معها على الشاطىء، الذي تبدى له كملعب للأطفال، كانت أمه تقضي أغلب نهاراتها مستلقية تحت شمسه. لذا لم يشعر أن له مكان فيه.

في اليوم التالي، دون أن يطلب أذناً، للذهاب الى شاطئه، غادر قبل أن تتبين الأم أن كان الأمر خطأ أم صواباً، قضى ماتبقى من اليوم مستكشفاً، ما إذا كانت له القدرة على تحسين الوضع وبلوغ الرقم العاشر، الأولاد الكبار جعلوا يمرون بينما كان يعد المئة والستين، أخذ يعد بسرعة، وقد داهمه الخوف، الآن من المحتمل، أذا حاول، فسيكون باستطاعته اجتياز النفق، لكنه لم يقدم على المحاولة بعد، خشية، أو عناداً طفولياً، أو كبحاً لجماح عواطفه، كل ذلك ألزمه الأنتظار، وفي نفس الوقت، أستلقى بجسده على الرمل الأبيض تحت الماء، محملاً بالحجارة التي جلبها معه، دارساً طرق مداخل النفق، فقد عرف كل بروز وزاوية فيه، كما تبينها بنفسه، أو أحس بملمسها الحاد فوق كتفيه.

وفي الفيلا، أتخذ له مجلساً مقابل الساعة، عندما لم تكن أمه قريبة منه، يختبر توقيت قدرته، شاكاً في تمكنه من قطع أنفاسه دون إجهاد مدى دقيقتين، كلمة(دقيقتين) التي ترتبط بالساعة، تنتهي بمغامرته البالغة الضرورة بالنسبة له.

بعد الأيام الأربعة الأخرى، قالت أمه في الصباح بشكل اعتيادي، يجب عليهم العودة الى البيت، قبل يوم من رحيلهم، أحب أن يفعلها، يفعلها حتى لو تسببت في القضاء عليه

قال متحدياً نفسه، ولكن قبل يومين من عزمهم السفر: يوم انتصاره بزيادة العد الى خمس عشرة – نزف أنفه الكثير من الدماء،

وعاد الصداع الى رأسه من جديد، مما أضطره الاستلقاء على الصخرة بجسده الهزيل، كقطعة من العشب البحري، وهو يشاهد دمه المتخثر القاني ينساب فوق أديمها ويسيل ببطء نقاطاً صغيرة على البحر، أشعره ذلك بالخوف، أفرض أن الدوخة عاودته داخل النفق!؟ فرضاً– لو أنه مات هناك حصراً؟ فرضاً لو أن دواراً أصاب رأسه من حرارة الشمس، حتى كاد أن يتخلى تماماً عن قضيته، فكر بالإياب الى البيت والاستلقاء هناك، حتى مجيئ الصيف القادم، ربما بعد أن يكمل سنة أخرى من عمره: أذن فسيتمكن عندها من اجتياز النفق بيسر

لكنه رغم قراره هذا، الذي شغل به، وجد نفسه ينتفض قائماً فوق الصخرة محدقاً تحته في الماء، وقد عرف الآن، وفي تلك اللحظة بالذات، ما أن توقف أنفه عن النزف، ورأسه مازال يوجعه وهو ينبض: فكر تلك اللحظة بإعادة المحاولة. لو لم يفعلها الآن، فلن يقوم بها مرة أخرى قط، أخذ يرتجف رعباً، وفكر بإلغاء فكرته، وقد تملكه الفزع، حتى أخذ جسمه يرتعد، وماذا عن طول النفق الصخري تحت الأعماق، وحتى تحت الضوء الشمسي، كان الحاجز الحجري واسعاً وثقيلاً، أطنان من الصخور ألقيت في طريقه، فلو لقي مصرعه هناك، سيبقى جسده مرمياً حتى يأتي يوم: ربما ليس قبل السنة القادمة – حين يأتي أولئك الأولاد وقت سباحتهم ليجدوه مترهلاً ومنتفخاً في مكانه هناك

لبس نظارتي الغوص، ثبتهما جيداً، جرب عدته، لكنه أدرك رجفة في ذراعيه، عندها أختار أكبر الأحجار التي يقدر حملها، ثم أنزلق نازلاً على الحافة الصخرية، نصفه في البرودة، والنصف الآخر تحت لفح الشمس، نظر عالياً في فراغ السماء، وملأ رئتيه بالهواء مرة بعد مرة، ثم أنساب بجسده وسط الماء من جديد مع صخرته الثقيلة، غاطساً بسرعة، أفلتها ثم أبتدأ العد، أمسك حواف الفتحة بيديه، ساحباً نفسه الى الداخل، حرك كتفيه الى الجوانب، كما تعلم من قبل، حشر جسده مدخلاً قدميه بادئ الأمر.

حالاً ألفى نفسه وسط فتحة بركة صغيرة واضحة بين الصخور، مليئة بالماء الرمادي المصفر، أخذ الماء يدفعه بقوة نحو السقف الحاد، أخذت البروزات الناتئة تؤلم ظهره،

أستعان بيديه، دافعاً نفسه أسرع فأسرع، مستعملاً أرجله كعتلات، لكنه شعر بأرتطام رأسه بشيء ما، وأحس بألم حاد أصابه بدوار، خمسون، واحد وخمسون، أثنان وخمسون...لم يكن لديه ضوء، وبدى ضغط الماء بمثل ثقل الأحجار، واحد وسبعون، أثنان وسبعون...لم تعد رئتاه تجهدانه، أحس بنفسه كبالون طائر، أصبحت رئتاه خفيفتين ورخوتين، لكن رأسه أستمر بالدوي.

أخذ جسده يضرب السقف الحاد بشكل مستمر، كان دبقاً وحاداً، حتى خشي أن يكون قد صدم أخطبوطاً، وتساءل فيما إذا كان النفق يحوي نباتات بحرية ضارة تتشابك حول جسده، أندفع أماماً بتشنج وذعر، متفادياً أرتطام رأسه بشيء، أثناء سباحته، تاركاً ليديه ورجليه حركتهما الحرة، المنفلتة، في طلاقة الماء، يجب أن تكون الفتحة أكثر أتساعا عند مخرجها،

فكر، عليه العوم بشكل أسرع، وخشي أن يؤذي رأسه مرة أخرى فيما لو كانت الفتحة ضيقة أكثر.

مئة، واحد بعد المئة...كان الماء باهتاً، أخذته نشوة النصر، لكن رئتيه بدأتا تؤلمانه،

عدة خبطات وسيكون خارجاً، أستمر يحسب بجنون، وصل، مئة وخمس عشرة، بعدها، مر وقت طويل، فعاد يقول، مئة وخمسة عشر، مرة ثانية، أصبح أخضر الماء الزمردي يضيء كل ما حوله، بعدها، شاهد في الأعلى شقاً يخترق الصخور، كانت الأشعة تأتي من جهته، فأضاءت حجارة النفق السوداء النظيفة، وجد في طريقه صدفة بلح البحر، وفجأة عم الظلام.

كان على وشك الانتهاء، نظر الى الشق كما لو أنه مليء بالهواء وليس الماء، أستنشق بملء فمه هواءً، مئة وخمس عشرة، سمع الصوت يطن في رأسه – ولكنه تذكر أن منذ زمن طويل، عليه التوجه صوب الظلام، أو أنه سيغرق، فقد بدأ رأسه يتورم، وأصيبت بالتصدع رئتاه، مئة وخمس عشرة، مئة وخمس عشرة، ظلت تدور في رأسه، فتمسك بالصخور خلال العتمة، دافعا مقدمة جسده أماماً، مخلفاً منطقة الماء المريحة التي تغمرها الأشعة. شعر بنفسه كمن أشرف على الموت، وبلا وعي تماماً، جاهد في اليم، بين فترات فقدان الوعي، الأورام ملأت رأسه بالألم، الهائل والضجيج، بعدها شاهد الظلمة تنشق عن موجة من الضوء الأخضر، تلمست يداه الطريق أمامه، لا شيء، رفس بقدميه الى الوراء، وفجأة وجد نفسه منفتحاً على سعة البحر.

عائماً فوق السطح، بدأ يرفع رأسه ليعب الهواء، وهو يلهث مثل سمكة،

شعر الأن بأنه يريد أن ينحسر تدريجياً، ويغمر بالماء. لم يقطع مسافة العودة المتبقية بينه والصخرة سابحاً، قبض عليها بكلتا يديه، ودفع نفسه نحوها، أراح وجهه فوقها وهو يلهث، لم يعد ير شيئاً غير الأحمر الكامد، المتخثر المعتم، لكأن عينيه تكادان تنفجران، فأعتقد انهما قد ملئتا بالدم، خلع نظارتيه وسكب عنهما النقاط التي تساقطت في البحر، كانت دماء أنفه النازف قد ملأتهما.

غرف بيديه حفنة من ماء البحر البارد الملحي، رشها على وجهه، لم يتبين بعدها إن كان الذي تذوقه كان طعم المياه أم مذاق دمه، بعد فترة وجيزة، هدأ قلبه، وتوضحت الرؤية أمام عينيه، نهض من مكانه، شاهد الأولاد الأهالي يقتحمون الماء ويلعبون على مبعدة نصف ميل عنه، لم يجد في نفسه الرغبة للاقتراب منهم، لم يرغب بأي شيء، عدا العودة الى البيت والاستلقاء على فراشه.

بعد دقائق، سبح جيري نحو الشاطيء، مرتقياً طريق الممر المؤدي الى الفيلا، ألقى نفسه على فراشه وأستغرق في النوم، أيقظه بعد فترة وقع خطوات على الممر في الخارج، كانت أمه عائدة الى البيت، أندفع مسرعاً الى الحمام، لكي لا يدعها ترى وجهه المبقع بالدم والدموع، خرج من الحمام، قابلها عند المدخل، وقد برقت عيناه (هل قضيت صباحاً ممتعاً؟) سألته وكفها تربت على كتفه الدافئة (أوه، أجل، شكراً) أجاب (تبدو شاحباً بعض الشيء) ثم استأنفت بقلق وحدة (كيف ضربت رأسك؟) (أوه، مجرد ضربة خفيفة) أخبرها.

تطلعت اليه عن قرب، بدى لها مجهداً، بنظرات غائمة، تضايقت لذلك، وأخذت تكلم نفسها شاكية:

أوه، لاتتذمري! لم يحصل شيء، أنه يجيد العوم مثل سمكة.

بعدها جلسا يتناولان العشاء سوية.

(ماما..) قال (أنني أستطيع البقاء في الماء لمدة دقيقتين – ثلاث دقائق في الأقل)

أخذت في الكلام معه (أتستطيع ياعزيزي؟)

قالت (حسن، لن أرهقك بذلك، لا أعتقد أنك ستذهب للسباحة ثانية هذا اليوم؟)

كانت تبدو على أتم الاستعداد للقتال حول أراداته المستمرة، لكنه فضل التخلي عن كل شيء في الحال، والاستسلام نهائياً، فلم تعد في نظره أدنى أهمية لذهابه الى الخليج المقفر مرة أخرى أبداً.

# هيكل عظمي

## رابندرانات طاغور*

كان في الغرفة المجاورة لغرفة نوه الأطفال هيكل عظمي معلق يقرقع حينما تعبث به الريح وفي النهار كنا نسر بالاصطدام به. وكان في هذا الوقت طالب من مدرسة الطب بكامبييل يعلمنا تشريح العظام لأن أوصياءنا كانوا يزعمون أنهم ينقشون في عقولنا العلم التام.

ومرت الأعوام واختفى الهيكل العظمي من الغرفة كما اختفى تشريح العظام من ذاكرتنا دون أن يترك أي أثر. أزدحم منزلنا أخير بالمدعوين فاضطررت أن أقضي الليل في تلك الغرفة التي كان معلقا بها الهيكل العظمي

---

* رابندرانات طاغور شاعر ومسرحي وروائي بنغالي. ولد عام ١٨٦١ في القسم البنغالي من مدينة كالكتا الهندية وتلقى تعليمه في منزل الأسرة على يد أبيه وأشقائه ومدرس يدعى دفيجندرانات الذي كان عالماً وكاتباً مسرحياً وشاعراً وكذلك درس رياضة الجودو.

وكان رابندرونات طاغور واحدًا من الشخصيات البارزة في القرن العشرين، وكان أكثر الشعراء الهنود إثارةً للعجب والذي قدم الثقافة الهندية الغنية إلى الغرب وأول شخص غير أوروبي ينال جائزة نوبل. وذلك في عام ١٩١٣، نال طاغور جائزة نوبل للآداب، ليكون بذلك أول أديب شرقي ينالها. وفي العام ١٩١٥ نال وسام الفارس من قبل ملك بريطانيا جورج الخامس، لكنه خلعه في العام ١٩١٩ في أعقاب مجزرة أمريتسار والتي قتلت فيها القوات البريطانية أكثر من ٤٠٠ متظاهر هندي.

أمضى طاغور أغلب عمره متنقلا بين العديد من دول العالم في آسيا وأوروبا والأمريكتين، لإلقاء الشعر والمحاضرات والإطلاع على ثقافة الآخرين، دون أن ينقطع عن متابعة شؤون مدرسته، وظل غزير الإنتاج حتى قبيل ساعات من وفاته، حين أملى آخر قصائده لمن حوله، وذلك في أغسطس من العام ١٩٤١ في أعقاب فشل عملية جراحية أجريت له في كالكوتا، وقد توفى طاغور عن عمر يناهز ٨٠ عاماً.

والتي انقضى الزمن الذي كنت آلفها فيه. حاولت النوم بكل وسيلة فلم أستطع، أخذت أتقلب وأعد دقات ساعة الكنيسة طوال الليل... طفق مصباحي يختلج لحظة ثم انطفأ، وقد فقد أسرتنا بعض أعضائها حديثا، وهذا ما اقتاد فكري نحو الموت..

ساءت نفسي ألا يشبه نور الصباح الذي يتيه في الظلمات من مسرح الحياة العظيم ضوء حياتنا الضئيلة الذي لا يلبث أن ينطفئ في كل ساعة من ساعات الليل أو النهار؟

عاودتني ذكر الهيكل العظمي، وبينما أنا أتصور شكل الجسم الذي كان يكسو تلك العظام، شعرت أن شخصا يدور حول سريري يسير متسكعا بجانب الحائط، ولقد شعرت بتنفسه السريع، وخيل إلى أنه يبحث عن شيء لا يجده، ويدور حول الغرفة بخطى سريعة.

ولقد خدعت في الحقيقة من شيء خلقه مخه المضطرب الذي حرم نومه، وظننت أو وقع الأقدام التي سمعتها ما هو إلا دقات شراييني في صدغي، ورغم ذلك شعرت بارتعاد مثلج. ولأطرد من مخيلتي هذا الهذيان صحت بأعلى صوتي: (من هناك؟) فأحسست بأن الخطى وقفت بجانب سريري وأجابني صوت (أنا الطارق وقد أقبلت لأختبر هيكلي العظمي).

اكتفيت بأن أضغط على وسادتي وأصيح بلهجة مخالفة للأولى: (إن هذا الشاغل الذي اقتادك في مثل هذه الساعة من الليل لمضحك؟ وماذا يهمك هذا الهيكل العظمي).

ويظهر أن الجواب انبعث من كلمتي نفسها: (إن عظام هذا الهيكل قد

أحاطت قلبي ورأت محاسن شبابي الخلابة في ربيعها السادس والعشرين! وكيف أقاوم الرغبة الملحة في رؤيتها ثانية؟).

فقلت له بدوري: (إنها لرغبة شرعية فتمم بحثك واتركني لشأني عساني أجد النوم)

فرد الصوت: (أخالك وحدك وأود أن أجالسك لحظة نتسامر فيها. لقد كان يسرني أن أسجل الناس الحديث ولكني علم ألق في هذه الخمسة والثلاثين سنة الأخيرة إلا الأنين فوق نيران الموت، وما أحيلي أن أحادث اليوم رجلا مثل العهد السابق).

وقد شعرت أن شخصا أقبل وجلس بجانب ستائري فاستسلمت واستعنت بتوددي قائلا:

– ما أعظم ابتهاجي وسروري للسمر ولنبحث سويا عن موضوع شائق نتحدث فيه..

إني لا أجد موضوعاً مسلياً اعظم من قصتي الشخصية فهل تسمح لي بسردها؟

وقد دقت في هذه الآونة ساعة الكنيسة الثانية صباحاً.

قال الصوت: (حينما كنت في عنفوان شبابي وكنت أقطن بين الأحياء سبب لي أحد الناس فزعاً ورعباً يفوقان رعب الموت: ولم يكن ذاك غير زوجي. وإني لا أجد ما أقارن به شعوري غير السمك المعلق في سن الشص فكأن شخصاً أجنبيا علقني بشص عنيف وانتزعني من دار طفولتي السعيدة

حتى كنت لا أستطيع أن أفكر في الخلاص، وقد مات زوجي بعد الزفاف بشهرين بينما كان أقاربي وأصدقائي يبكون بكاء مرا لحظي التعس المنكود. وفي ذات يوم قال حمى لحماتي بعد ما أطال النظر على وجهي: (ألا ترين أن زوج ابننا لها عين سوء صائبة حاسدة؟) هل أنت مصغ إلى؟ وهل يهمك حديثي؟

– يهمني جدا وإن أوله ليدل على أنه شائق مسل!

– أتمم إذن حديثي. ولقد عدت إلى بيت أبي بكل سرور. ولو أن البيئة التي كنت فيها ما كانت تشعر بشيء من محاسني... لكني كنت واثقة من أنني أحرز جمالا رائعا نادرا. فما رأيك؟

– هذا شيء معقول جدا، ولكن لا تنسي أنني لم أرك قط.

– قط؟ وماذا تعمل بهيكلي العظمي؟ ها! ها! هذا لا يهم فإنني أمزح.

وكيف أجعلك تتصور أنه كان في هذين التجويفين اللذين تجردا من لحمهما عينان سوداوان يتلألأن بأنواع السحر والفتنة؟ أو أن الابتسام الذي كان يضئ هاتين الشفتين الورديتين لا يشبه في شيء هيئة الضحك العابس التي عرفتها، وعندما أذكر كل المحاسن والرشاقة ومتانة هاته الانحناءات التي كانت في شرخ الشباب تتفتح كالأزهار فوق هذه العظام النخرة لا أستطيع أن أكتم ابتسامي. وإني لأتألم من ذلك. وهل يستطيع مشاهير العلماء في زمن أن يفرضوا أن عظام جسم مثل هذا تخصص لدراسة تشريح العظام؟ وعلم أن طبيبا من الشبان المجاورين لنا شبهني بزهرة (الشمباك) الذهبية؟

حينما أمشي كنت أشعر بأن أقل حركاتي تفجر أمواجاً منسجمة تنبعث

من كل وصب كلألاء الماس. كانت تمر على ساعات وأنا أشاهد في يدي اللتين كبلتا برشاقة الرجال الذين يتأجج فيهم نشاطهم.

ولكن هذا الهيكل العظمي قد أخفي عنك الحقيقة كشهادة الزور، ولك يكن في ميسوري أن أدحض تأكيداته الوقحة. أشعر أنني أحب أن أطرد النعاس من عينيك إلى الأبد بأن أستحضر أمامك الصورة الوردية الحية لجمالي بحث أمحو من أمامك كومة العظام المشؤومة التي تملأ ذهنك.

– كنت أستطيع أن أقسم بجسمك إذا كان لم يزل حيا، ولو أنه لم يترك منه أي أثر من العظام؟ لكن عقلي افتن بالصورة الوضاءة لجمال كامل يظهر بهاءه بقوة التضاد هذا الليل الفاحم الذي يحيط بها، وإني لا أقدر أن أقول أكثر من هذا.

– استمر الصوت في حديثه قائلا: لم تكن لي صاحبات لأن أخي الوحيد صمم على عدم الزواج. كنت وحدي في خدري وقد اعتدت أن أستلقي في الحديقة في ظل شجرة، وكانت الأحلام تستدرجني في يقظتي حتى خلت أن العالم كله قد شغفه حبي، وأن الدراري التي ما فتئت مستيقظة على الدوام لتشمل من نشوة بهائي. إن الصبا لتتنهد حينما تنتحل هلا عذراً لتتمسح بي بجناحها. وإن داست قدمي مرحاً فإن مجرد اللمس يفقده رشده. وإن فتيان العالم يظهرون أمامي كأنهم أعواد الكلأ تحت قدمي، ولا أدري لأي سبب يلازمني الحزن والكآبة.

وحينما تخرج شيكهار صديق أخي من مدرسة الطب أصبح طبيب أسرتنا، وقد لمحته مرات مختبئاً وراء ستار، وكان أخر رجلا غريب الأطوار لا يهتم بالنظر إلى العالم الخارجي، وكان بوده ألا تكون الدنيا مقفرة ويبتعد

بالتدريج إلى أن يقبع في ركن مظلم. كان شيكهارد صديقه الوحيد الذي أتاحت لي الفرص مقابلته، وفي بلاط المفتونين بحبي الذي كنت أتخيله في أوقات نزهتي الليلة كان كل شاب مشتت الفكر عند قدمي يستعير وجه شيكهار. هل أنت مصغ إلي؟ وما قولك في قصتي هذه؟).

فأجبت وقد سبقت لساني زفرة:

(وددت لو كنت يشكهارا)؟

– انتظر قليلا وأصغ أولا لآخر الحديث، وفي ذات يوم مطير أصابتني الحمى فجاء الطبيب يعودني، وكانت هذه أول محادثة جرت بيننا. كنت راقدة أمام النافذة وقد لطف ضوء الشمس عند غروبها بيضا لوني، وحينما نظر إلى الطبيب وضعت نفسي مكانه وطفقت أنظر إليه مغرقة في التصوير والتأمل، وشاهدت وجهي الشاحب في ضوء الأصيل موضوعاً فوق الوسادة البيضاء كزهرة ذابلة، وحلقات شعري الحمقى تعبث بجبيني، بينما أجفاني مطرقة باستحياء ناشرة ظلا معبرا فوق سحنتي.

سأل الطبيب أخي والحياء يلعثم لسانه ويخفض من صوته: (أتسمح لي أن أجس نبضها؟)

(أخرجت من تحت الغطاء قبضة مستديرة مدنفة ولاحظت حينما تفرست فيها أنها عاطل من سواري الصغير!).

لم أر في حياتي أجهل من هذا الطبيب في جنس النبض. كانت أصابعه ترتعد حينما تمس ذراعي، فإن قاس درجة الحمى في جسمي فإني شعرت بدقات قلبه وقستها من أصابعه – هل وعيت حديثي؟

فقلت: بكل سهولة، إن دقات قلوبنا تعبر عن أفكارنا.

– وبعد عدة وعكات وكثير من الشفاء والعافية وجدت أن عدد المفتونين الذي يؤمون بلاط حبي الخيالي آخذ في النقص حتى انتهى إلى فرد واحد، وفي النهاية استحال عالمي الصغير إلى طبيب ودنفة.

وبمناسبة مقابلتي اعتدت أن البس سرا طيلساناً أصفر وكنت أعقد حول شعري عقداً أبيض من أزهار الياسمين، ثم أتناول مرآتي وأذهب إلى مكاني الذي ألفته تحت الأشجار.

إنك ترى بلا شك أنت مشاهدة جمالنا في المرآة يكون على ممر الزمن مملا؟ ولكن شيئا من ذلك لم يحصل لأني لا أنظر بعيني نفسها لأني كنت في الوقت نفسه أحد الشخصين، فكنت أختبر كما يختبر الطبيب، وكنت أطيل النظر وأفتتن وأشتعل بنار الحب. ورغما من انتباهي وحذري أغار أنين على فؤادي وسمع له صوت كنسيم الصبا في المساء.

ومن هذا العهد كففت عن الشعور بالوحدة، وفي أثناء نزهتي كنت أتتبع بنظراتي عبث أصابع رجلي الصغير بالرمل الناعمة، وكنت أسائل نفسي ماذا يكون شعور الدكتور لو كان حاضراً. كنت أمثل الشمس وقت الزوال مغيرة على الزرقاء بنورها الوهاج، ولم يعكر صفاء السكون غير صياح مقتطع المسر البعيد، وصوت وراء سياج الحديقة لبائع خواتم من البلور وهو ينادي نداء شجيا! فرشت على الكلأ ملاءة بيضاء لأستلقي عليها وأسندت رأسي إلى ذراعي وأرحت ذراعي الأخرى فوق الملاءة بشكل رشيق، وقد تخيلت أن شخصا يئن لاحظ وضع يدي الشائقة فشد عليها بين يديه ووضع في راحتي

قبلة ذهبية وابتعد ببطيء. وأن وقفنا الحديث هنا فما رأيك؟

– (يكاد يكون ختاما مقبولا) وقد أجبتها بلهجة حالم. قالت: وستبقى الصور ناقصة قليلا ولكنني سأقضي بقية الليل في إصلاح هذا النقص.

– ولكنها تكون جافة. وكيف ندخل فيها الضحك؟ وكيف تصل إلى جعل الهيكل العظمي بضحك وينكر ملامحه؟

– دعني الآن أتمم الحديث. وما إن وجد الطبيب بعض المرضى حتى أخذ غرفة أرضية من منزلنا وأعدها لعيادته. وفي هذا الزمن كنت ألهو بسؤاله عن تأثير العقاقير والسموم والكمية الكافية لقتل رجل، فكانت هذه الأسئلة ملائمة لطبيعته فأجاب عنها بفصاحة ولباقة، وكان من نتيجة هذه المحادثات أن صارت عندي فكرة الموت عادية لا تثير أي أهتمام، وبذلك توطن الحب والموت عالمي الباطني. وإن حديثي قد قارب النهاية لأننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة.

– كما أننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة من الليل.

– وقدلاحظت بعد مدة من الزمن قلقا غريبا يساور الطبيب وظهر عليه كأنه يخجل من أمر يريد أن يخفيه عني، وقد حضر مرة بثياب فاخرة وهندام ظريف ليستعير عربة أخي.

(كنت فريسة لتطلع شديد فصممت على سؤال أخي؛ وبعد أن دار بيننا الحديث من الشرق إلى الغرب قلت له: خبرني بالحقيقة يا أخي، اين ذهب الطبيب الليلة في عربتك؟

فأجاب أخي باختصار: إلى الموت.

– خبرني بكل صراحة أين يذهب.

– (ذهب ليتزوج) وقد أجاب أخري بطريقة أكثر وضوحا.

– أحقا ما تقول؟ وقد نطقت هذه الكلمة مصحوبة بقهقهة طويلة.

وقد علمت في آخر الأمر أن الخطيبة كانت غنية ورثت ميراثا عظيما سيغدق على الطبيب ثروة طائلة. ولكن لم أهانني بإخفائه هذا المشروع؟ هلا سألته يوما أن لا يتزوج حتى لا يصمي فؤادي؟ ولكن الرجال لا يؤتمنون. لم أعرف في حياتي إلا رجل واحدا، ولكن لحظة واحدة كانت كافية لكشف الحقيقة.

ولما رجع الطبيب من عمله وتهيأ للرحيل قلت له والضحك يغالبني: (سنتزوج في هذا المساء أيها الطبيب؟)

– إن فرحي قد أربكه بل زاده غيظا وحنقا

– ماذا جرى فإني لا أرى الأوركسترا؟

– فأجاب بتأوه: هل الزواج حادث مفرج؟

(عاودني ضحك عنيف ثم قلت له لا! لا! فذاك من المستحيل أن يعلن زفاف دون أضواء وموسيقى!

ثم ضايقت أخي حتى أعد معدات العرس وجعله بهيجا سارا.

ولم أنقطع لحظة عن التندر بالخطيبة وعن الوقائع التي ستمر بها وعن حالتي تلقاء هذه الواردة الجديدة.

– خبرني أيها الطبيب، هل ستستمر في جس نبض مرضاك؟

بخ بخ! إن عمل العقل الباطن وإن كان غير منظور لا سيما عند الرجال فإني أستطيع أن أؤكد بأن قولي كان على فؤاد محدثي كالحراب الفولاذية.

إن الزواج سيشهر بعد قليل في الليل. وقبل الذهاب شرب الطبيب هو وأخي كأسا من النبيذ كعادتهما اليومية، وفي هذه الوقت طلع القمر.

(ثم تابعت حديثي قائلة والابتسام يعلو وجهي: هل نسيت زواجك؟ قد آن المسير).

وقد فاتني بعض التفصيل، فإني قبل هذه المدة قد هرولت إلى العيادة وأخذت مها مسحوقا ووضعته خفية في كأس الطبيب.

لقد شرب الطبيب كأسه بجرعة واحدة ثم قال لي بصوت متهدج من التأثر مصحوب بنظرة أخترقت فؤادي: (سأذهب) صدحت الموسيقى بأنغامها الشجية، ثم ذهبت إلى خدري ولبست ثوب الزفاف المنسوج من خيوط الذهب والفضة وتزينت بحلي ووضعت على شعري العلامة الحمراء التي تميز الزوجة وذهبت إلى الأشجار لأهيئ مضجعي.

وكان الليل جميلا وقد ذهبت رياح الجنوب المنعشة بمتاعب الدنيا؛ وقد تضوع شذا الياسمين والورد حتى غمر البستان البشر والفرح.

وكان أصوات الموسيقى تصل إلى سمعي أضعف مما كانت عليه، وطفق لألاء القمر آخذا في النقص، وانمحت من ذاكرتي الدنيا وصورة بيت الأسرة كأنها وهم تبدد ثم أغمضت عيني وأنا مبتسمة. وقد تخيلت أن الذين

سيقبلون لمشاهدة بسمتي الأخيرة المنطبعة على شفتي كأنها آثار نبيذ وردي، وأني سأدخل في مخدع زفافي الدائم ووجهي مضيء بنفس الابتسامة.

وا أسفاه على مخدع زفافي وثوب عرسي المنسوج المن الذهب واللجين! لأني حينما استيقظت من فرقعة العظام التي يخيل إلى أنها صادرة من هيكلي العظمي وجدتني في حضرة ثلاثة غلمان يتعلمون تشريح العظام في هيكلي. وفي هذا الصدر الذي كانت تخفق فيه أفراحي وأتراحي والذي تفتحت فيه وريقات زهرة صباي كان الأستاذ يبين بسبابته عظامي واحدة فواحدة، هلا وجدت أثرا من هذا الابتسام الذي درسته بكل عناية؟

وكيف وجدت قصتي؟

– إنها للذيذة محبوبة.

وفي هذه الفترة ابتدأ ينعق أول غراب. فسألت: (هل أنت هنا؟)

فلم يرد عليّ أحد. واخترقت أشعة الصباح مخدعي فأضاءته.

# حكاية الرجل الذى حلق مثل طائر

## سفتيلانا ألكسيفيتش*

إيفان ماشوفيتس – طالب الدراسات العليا بقسم الفلسفةمن تقرير صديقه فلاديمير ستانكفيتش، طالب الدراسات العليا بقسم الفلسفة

أراد أن يرحل دون أن يلاحظ، قطعا. كان الوقت مساء، وقت الشفق. لكن الكثير من الطلاب فى المسكن المجاور رأوه وهو يقفز. فتح نافذته على اتساعها، وقف على عتبة النافذة ونظر إلى أسفل لفترة طويلة. ثم استدار واندفع بقوة وطار... طار من الطابق الثانى عشر...

امرأة مارة ومعها ابنها الصغير. تطلع الصغير إلى أعلى:

– ماما، انظرى الرجل يحلق فى الهواء مثل الطائر... "

---

* ولدت سفيتلانا ألكسيفيتش فى ٣١مايو عام ١٩٤٨ فى بلدة ستانسيلاف فى غرب أوكرانيا لأب من بيلاروسيا وأم أوكرانية، وتربت فى روسيا البيضاء. بعد انتهاء الدراسة عملت صحفية فى عدد من الصحف المحلية قبل أن تتخرج من جامعة ولاية بلاروسيا عام ١٩٧٢، ثم صارت مراسلة لمجلة نيمان الأدبية فى مينسك عام ١٩٧٦. واصلت سفيتلانا ألكسيفيتش مهنة الصحافة والكتابة السردية من خلال المقابلات مع شهود العيان عن الأحداث الأكثر إثارة فى البلاد مثل الحرب العالمية الثانية والحرب الروسية الأفغانية وسقوط الاتحاد السوفيتى وكارثة مفاعل تشيرنوبيل. وبعد الاضطهاد من قبل نظام لوكاشينكو، رحلت عن بيلاروسيا عام ٢٠٠٠. وخلال العقد التالى من ٢٠٠٠ إلى ٢٠١١ عاشت سفيتلانا ألكسيفيتش متنقلة بين باريس وجوتنبرج وبرلين ودول أخرى.وفى عام ٢٠١١ عادت إلى مينسك. وبخلاف جائزة نوبل حصلت على عشر جوائز أدبية كان آخرها قبل نوبل بالطبع عام ٢٠١٣.

حلق لمدة خمس ثوانٍ...

أخبرنى بكل ذلك ضابط شرطة المنطقة عندما عدت إلى السكن، كنت أنا الشخص الوحيد الذى يمكن أن يطلق عليه صديقه، بكل ما تعنيه الكلمة. فى اليوم التالى رأيت صورته فى الصحيفة المسائية:

كان يرقد على وجهه فوق الرصيف... فى وضع الرجل الطائر.

يمكنى أن أحاول وضع ذلك فى كلمات قليلة...على الرغم من أن كل شئ انزلق بعيداً... فلا أنت ولا أنا يمكنه أن يستوعب هذه المتاهة.. سيكون التفسير جزئياً، تفسيراً مادياً، وليس تفسيراً روحياً. على سبيل المثال، هناك شئ يسمى خط الاتصال الموثوق به، فثمة شخص يتصل ويقول:

"أريد أن أنتحر" وفى خمس عشرة دقيقة يقومون بإنقاذه. يكتشفون السبب، لكنه ليس فى الواقع هو السبب الحقيقى، إنه الزناد...

قبل يوم واحد من الآن رآنى فى القاعة

"من المؤكد أنك ستأتى. يجب أن نتكلم"

فى ذلك المساء طرقت على بابه عده مرات، لكنه لم يفتح. استطعت من خلال الحائط أن أسمع أنه موجود هناك (غرفتانا متجاورتان) كان يتمشى ذهاباً وإياباً. "حسنا" فكرت "سأمر عليه فى الغد" وفى الغد كلمتنى الشرطة.

"ما هذا؟" أرانى الشرطى مجلدا بدا لى مألوفا إلى حد ما.

انحنيت فوق الطاولة:

"إنها أطروحته العلمية، هذه صفحة العنوان: "الماركسية والدي " كل

الصفحات مصلب عليها عرضياً بقلم رصاص أحمر، مكتوب عليها فى عنف: "هراء!! ثرثرة!! أكاذيب!!" كان ذلك بخط يده.. تعرفت عليه...

كان يخاف دائماً من الماء... أتذكر ذلك منذ أيام الكلية. لكنه لم يقل أبداً أنه كان يخاف من المرتفعات...

لم يكن موفقا فى أطروحته. حسناً، فليذهب بها إلى الجحيم! يجب أن تعترف أنك كنت أسير مدينة فاضلة... لماذا القفز من الثانى عشر بسبب ذلك؟ فى هذه الأيام كم من الناس يعيدون كتابة محاولتهم الأصلية، أطروحتهم للدكتواره، وكم من الناس يخشون أن يتقبلوا ذلك العنوان؟ إنه أمر محرج وغير مريح... ربما قرر: سأتخلص من تلك الملابس وهذا الهيكل الجسدى...

لا يمكن للمنطق السلوكى أن يقود إلى هذا، لكن تم ارتكاب الفعل مع ذلك... هناك مفهوم للقدر. قد منحت طريقاً لاتباعه.. عليك أن تصعد إليه...أمامك أحد الأمرين: تصعد أو تسقط... أعتقد أنه يؤمن بوجود حياة أخرى... فى طبقة رقيقة... هل كان متدنياً؟ من هذا الموضع تبدأ التكهنات... لو كان يؤمن، فقد كان ذلك بدون وسطاء، وبدون منظمات مرشدة، وبدون أية طقوس. لكن الانتحار مستحيل مع شخص متدين، فهو لا يجرؤ على انتهاك حدود الله... قطع الخيط... فآلة الزناد تعمل بشكل أسهل بكثير مع غير المؤمنين. إنهم لا يؤمنون بوجود حياة أخرى، ومن ثم لا يخشون مما قد يحدث. ما الفرق بين سبعين سنة أو مائة سنة؟ إنها محض لحظة، حبة رمل، جزيء من الزمن....

تكلمنا معا ذات مرة عن الاشتراكية وإنه لا يوجد حل لمشكلة الموت، أو على الأقل فى التقدم فى العمر. إنها فقط تحوم حول ذلك...

رأيته وهو يتعرف على رجل مجنون فى محل لبيع الكتب المستعملة. كان هذا الرجل أيضاً، يفتش فى الكتب القديمة عن الماركسية، كما كنا نفعل. وبعد ذلك قال لى:

"أتعرف ما قاله لى؟ أنا شخص طبيعى – لكنك أنت الذى يعانى، وتعرف إنه على حق"؟

أعتقد أنه كان ماركسياً مخلصاً ورأى الماركسية فكرة إنسانية، حيث "نحن" تعنى أكثر كثيرا من "أنا" مثل نوع من الحضارة الكونية الموحدة فى المستقبل... عندما تمر بغرفته سيكون راقداً هناك، وهو محاط بالكتب ل: ماركس، سيرة هتلر الذاتية، ستالين، قصص هانز كريستين أندرسون، بونين، الكتاب المقدس، القرآن الكريم. كان يقرأ كل ذلك فى وقت واحدٍ. أتذكر شذرات من أفكاره، لكنها فقط شذرات. سأعود إليها بعد ذلك... أحاول أن أجد معنى ما لموته.. لا عذر، لا سبب.. مؤكد! فى كلماته...

"ما الفرق بين الباحث والكاهن؟ يحاول الكاهن أن يتعرف المجهول من خلال الإيمان. لكن الباحث يحاول أنا يفهم ذلك من خلال الحقائق، من خلال المعرفة. المعرفة هى العقلانية. لكن دعنا نأخذ مسألة الموت، على سبيل المثال. فقط الموت. الموت يتجاوز الفكر.

لقد اتخذنا نحن – الماركسيين – دور كهنة الكنيسة، تقول أننا نعرف الإجابة على السؤال: كيف تجعل الجميع سعداء؟ كيف؟ كان كتابى المفضل

فى مرحلة الطفولة هو "الإنسان البرمائى" للمؤلف: أيه. بيليايف وقد أعدت قراءته مؤخراً. إنه رد على كل الطوباويين فى العالم... الأب يحول ابنه إلى إنسان برمائي. يريد أن يمنحه محيطات العالم. لكى يجعله سعيداً عن طريق تغيير طبيعته البشرية. إنه مهندس رائع.. يعتقد الأب أنه قد كشف السر... كما لو كان هو الله! لقد جعل من ابنه أتعس البشر... لا تكشف الطبيعة عن نفسها للعقل البشرى... إنها فقط تغوى بذلك "

يوجد هنا عدد قليل الى حد ما من منولوجاته، كما أتذكرها، على الأقل.

"ظاهرة هتلر سوف تقلق الكثير من العقول لفترة طويلة قادمة. تثيرهم.كيف. بعد كل ذلك الهوس الجماعى؟ الأمهات يمسكن بأطفالهن ويبكين. هذا، القهر، خذوهم"

"نحن هم المستهلكون للماركسية. من يستطيع أن يقول أنه يعرف الماركسية؟ يعرف لينين، يعرف ماركس؟ هناك ماركس فى البداية... وماركس فى نهاية حياته. التماثيل النصفية، الظلال، الإزهار المعقد كل ذلك مجهول بالنسبة لنا. لا أحد يمكنه أن يزيد من معرفتنا. نحن جميعاً مفسرون.

فى الوقت الحالى نحن متمسكون بالماضى كما نفعل فى التعلق بالمستقبل. كذلك اعتقدت أننى كرهت كل حياتى هذه، لكن اتضح أننى أحبها. أحب؟... كيف يمكن لأى شخص أن يحب هذه البركة من الدماء؟ هذه المقبرة؟ يا للقذارة! يالها من كوابيس... كيف يختلط الدم بكل ذلك... ومع ذلك أحب ذلك!

"أقترحت على أستاذى موضوع أطروحة علمية جديدة، الاشتراكية

باعتبارها غلطة عقلية فكانت إجابته: "هراء" كما لو كنت أستطيع حل شفرة الكتاب المقدس أو نهاية العالم بنفس القدر من النجاح. حسناً، الهراءء شكل من أشكال الإبداع أيضاً.... ارتبك الرجل العجوز. أنت تعرفه بتفسك – إنه ليس واحدا من هؤلاء الضراط العجائز، لكن بالنسبة له، كل شئ حدث كما لو كان مأساة شخصية. كان ينبغى أن أعيد كتابة أطروحتى، لكن كيف يمكن أن أعيد كتابة حياته هو؟ فى الواقع الآن كل منا ينبغى أن يعيد تأهيل نفسه. هناك أمراض عقلية – متعددة، أو مفككة، اضطراب فى الشخصية. الناس الذين ينسون أسماءهم ومواقفهم الاجتماعية وأصدقاءهم وينسون حتى أطفالهم، وحياتهم. إنه فناء للشخصية... فعندما لا يستطيع الفرد الجمع بين الأخذ الرسمى أو الاعتقاد الحكومى، ووجهة نظرة وشكوكه.. مدى صحة ما يعتقده، ومدى صحة ما يقوله. تنقسم الشخصية إلى جزأين أو ثلاثة أجزاء... هناك العديد من مدرسى التاريخ والأساتذة فى مستشفيات الأمراض النفسية... يفضل لو كانوا قد رسخوا شيئاً ما، أفضل من الانحراف. على أقل تقدير ثلاثة أجيال... وعدد قليل من الآخرين الذين فسدوا... كيف أن كل شئ غامض يفتقد إلى التحديد... إغراء المدينة الفاضلةً...

"خذ جاك لتدن... أتتذكر قصته عن كيف تعيش حياتك حتى لو كنت فى الأغلال؟ عليك فقط أن تخشوشن، تغرق، ثم تعتاد على ذلك... وسيكون عليك حتى أن تكون قادراً على الحلم"

الآن أحلل ما قاله.. متابعاً قطار فكره.. أستطيع أن أرى أنه كان يستعد للرحيل....

ذات مرة وكنا نشرب الشاى، فجأة، قال:

"أعرف كم ما تبقى لى من الوقت..."

صاحت زوجتى:" فانيا، ما الذى تقوله؟

ثم أضافت "كنا حقا نعد أنفسنا لكى نزوجك"

"كنت أمزح، كما تعلمين، لا يمكن للحيوانات أن تقدم أبدا على الانتحار. إنها لا تخرق الصف".

فى اليوم التالى لهذه المحادثة وجدت مديرة السكن الجامعى فى صندوق القمامة بدلة ذات ماركة جديدة، وجواز سفره فى الجيب، جرت إلى غرفته. كان مرتبكا وقد غمغم بشئ عن أنه كان فى حالة سكر. لكنه لم يذق أبداً من فترة قطرة واحدة! احتفظ بجواز السفر، لكنه أعطاها البدلة قائلا "لن أحتاج إليها بعد ذلك"

لقد قرر أن يتخلص من هذه الملابس، من هذا الغشاء الجسدى، كان لديه الكثير من الدهاء، وفهم التفاصيل أكثر مما نتوقع. وهو فى مثل عمر المسيح.

قد يعتقد المرء إنه قد أصيب بالجنون، لكن قبل بضعة أسابيع، سمعت عرضه للبحث... منطق فى سهولة الماء. دفاع رائع!

هل الشخص فى حاجة حقا لأن يعرف متى ينتهى أجله؟ ذات مرة عرفت رجلاً يعرف ذلك؟ صديق لوالدى. عندما أرسل إلى الحرب، تنبأت له امرأة غجرية. بأن عليه ألا يخاف من طلقات الرصاص لأنه لن يموت أثناء

الحرب، لكن فى الثامن والخمسين وهو فى البيت، وهو جالس فى المقعد ذى الذراعين. لقد خاض غمار الحرب كلها، تعرض لإطلاق النار وكان معروفاً بالرفيق المتهور وقد تم إرسالة إلى المهام شديدة الخطورة وكان يعود دون أن يخدش. وحتى سن السابعة والخمسين شرب ودخن منذ أن عرف أنه سيموت فى الثامنة والخمسين وهكذا حتى ذلك الحين استطاع أن يعمل أى شئ، كان عامه الأخير مضطرباً... كان خائفاً باستمرار من الموت... وكان ينتظر... ومات فى سن الثامنة والخمسين فى المنزل، فى مقعد أمام التليفزون.

هل من الأفضل للإنسان أن يحدد لنفسه خطا مرسوما؟ الحد بين هنا وهناك؟ وحيث من هنا تبدأ الاسئلة...

اقترحت عليه أن يفتش فى ذكريات طفولته ورغباته، ما الذى كان يحلم به، ثم تخلى عنه. ويستطيع أن يحققه الآن... لم يتحدث إلى أبداً عن طفولته. ثم فجأة انفتح. من الشهر الثالث من عمره وهو يعيش فى الريف مع جده. وعندما صار أكبر قليلاً كان يود أن يقف على جذع شجرة وينتظر أمه. عادت ماما بعد انتهاء المدرسة، مع ثلاثة إخوة وأخت، كل طفلا من رجل مختلف. درس حتى الجامعة، أبقى لنفسه عشر روبلات، وأرسل ما تبقى من راتبه إلى المنزل، إلى ماما.

"لا أتذكر أبداً أنها قدغسلت أى شئ لى. ولا حتى منديل. لكننى فى الصيف سأعود إلى الوطن: سأطلى الجدران. وإذا قالت لى كلمة طيبة، سأكون سعيداً.

لم يكن له أبداً صديقة.

حضر أخوه إليه من الريف. كان فى المشرحة... بدأنا نبحث عن امرأة للمساعدة، لكى تغسله وتلبسه. هناك النساء اللاتى يفعلن هذا الشئ. عندما حضرت كانت ثملة. ألبسته بنفسى...

فى القرية جلست وحدى معه طوال الليل. وسط الكبار من الرجال والنساء. لم يخف أخوه الحقيقة، ومع ذلك طلبت منه ألا يقول شيئا، على الأقل لأمهما، لكنه كان فى حالة سكر وأفشى كل شئ. ظلت السماء تمطر بغزارة لمدة يومين. فى المقبرة كان لابد للجرار أن يجر السيارة بالنعش. رسمت النساء العجائز الصليب على صدورهن فى خوف وحمية.

"ذهب ضد إرادة الله، لقد ارتكب إثما"

لم يسمح له الكاهن بالدفن فى المقبرة: لقد ارتكب خطيئة لا تغتفر... لكن وصل رئيس مجلس القرية فى سيارة وأعطى له التصريح بالدفن.

رجعنا وقت الشفق. مبتلين ومحطمين فى حالة سكر.

خطر لى أنه لسبب ما فى الغالب يختار الرجال الأوفياء والحالمون هذه الأنواع من الأماكن. من هذا النوع فقط من المكان الذى ولدوا فيه. كانت حواراتنا عن الماركسية باعتبارها حضارة عالمية موحدة فى ذاكرتى. وعن المسيح باعتباره الاشتراكى الأول. وحول أن سر العقيدة الماركسية لم يكن مفهوماً تماماً لنا، على الرغم من أننا كنا غارقين حتى ركبنا فى الدم.

جلس الجميع إلى المائدة. صبوا لى كأساً من الفودكا المحلية.. شربته على الفور... بعد عام ذهبت أنا وزوجتى إلى المقابر مرة أخرى... قالت زوجتى:

- "ليس هنا" ثم أضافت:

- "عندما حضرنا فى المرات السابقة لزيارته، هذه المرة مجرد شاهد لقبر. تذكر كيف كان يبتسم فى الصور الفوتوغرافية؟"

إذن لابد أن يكون قد تم نقل رفاته، للنساء أجهزة أكثر حساسية من الرجال، ولقد شعرت بذلك.

وكانت نفس المناظر الطبيعية. أما نحن فمبتلون. محطمون. فى حالة سكر. أغدقت أمه علينا بالتفاح من أجل الرحلة. وقام قائد الجرار الثمل بتوصلينا إلى محطة الحافلات...

# الخبز

**سلمى لاجيرلوف***

في قديم الزمان أراد سيّدنا أن يصنع خبزا. أخذ الكثير من الأحجار الرمادية الصغيرة والمطحونة بنعومة، ومعها الحصى الخشن. وضع كل هذا في آلة عجن وصبّ الماء الحار فيها. بدأ يخلط حتى أصبح العجين كثيفا. أضاف الخميرة وألقى بحفنة من الحديد والنحاس والزنك ثم بقليل من الفضة والذهب مثلما يفعل الخبّاز حين يضيف التوابل لكي يكون طعم العجين لذيذا ومطيّبا، عجن ثانية ثم صنع من العجين رغيفا طويلا عريضا في الوسط ونحيفا في الطرفين. وفي الأخير وضعه على اللوح وتركه لكي ينتفخ.

---

* سلمى لاجيرلوف (٢٠ نوفمبر ١٨٥٨ – ١٦ مارس ١٩٤٠) روائية سويدية حائزة على جائزة نوبل في الأدب سنة ١٩٠٩، وهي أول كاتبة سويدية تفوز بجائزة نوبل التي بدأت بمنح جوائزها منذ سنة ١٩٠١، ثم أصبحت سلمى في سنة ١٩١٤ من ضمن أعضاء الأكاديمية التي تمنح جوائز نوبل التي يتبناها بلدها السويد.

يرجع إبداع سلمى لاجيرلوف إلى معاناتها، فقبيل فوزها بالجائزة وكانت شهرتها الأدبية ملء الآفاق كانت تعاني العوز، وكانت تنتظر المبلغ المالي الذي تتضمنه الجائزة لتفك الرهن عن منزل والدها الذي قضت طفولتها فيه، واضطرت لتركه بعد أن تم بيعه لسداد ديون والدها الذي مات مديونًا. وقد تحدثت لاجيرلوف في كلمتها أمام الأكاديمية المانحة عن تلك المعاناة التي لازمتها مبكرا حيث أصيبت في طفولتها بمرض شلل الأطفال الذي أتلف ساقيها، وتضاعفت المعانة برحيل الأب مدينا. وهي التجربة التي كانت بمثابة البوتقة التي صهرت موهبتها فأخرج إبداعها الفذ وجعلها حتى اللحظة الاسم الأهم في الأدب السويدي.

/ سيكون رغيفا رائعا! / فكر سيّدنا وإبتسم عندما رأى أمامه رغيفا ذا شكل جميل. بعدها ترك المكان وإنصرف الى قضاياه الأخرى.

بعد وقت قصير عاد لكي يرى هل العجين إنتفخ أم لا، أها، إنتفخ!. وقد إنتفخ العجين كثيرا، تشقق في مواضع ليست بالقليلة. صار لينا جدا وفيه الكثير من الفقاعات، والأسوا من هذا أن ما كان في الأسفل صار في الأعلى وماكان على السطح صار في القعر.

لكن كل شيء كان على ما يرام، عدا شيء واحد: إنتفخ الرغيف لدرجة أنه إلتحم بالرغيف المجاور. الرغيفان كبرا جدا ولم يكن ممكنا فصلهما بدون الإضرار بكل واحد منهما.

/ليبق الحال كما هو. قال سيّدنا الا أنه لم يكن راضيا تماما.

لو أنهما إستلقيا بصورة متوازية!، لظهرا مثل رغيف واحد، عريض وكبير. ولكن ها أن احدهما يستلقى أعلى من الثاني بقليل، وفي المحصلة كان شكلهما كرغيفين يبدو غريبا.

لكن لاحيلة في الأمر.

بقي الرغيفان هناك لقليل من الوقت، ثم جاء سيّدنا وتفحصهما مرة أخرى. والآن صار منظرهما كما ينبغي. في الواقع ظهرت في الداخل إنتفاخات وأخاديد الا أن السطح كان مستويا وصلبا.

على طول الجانبين كانت هناك الشروخ والنتوءات، وخاصة في الرغيف العلوي. أكيد أن فيه خميرة أكثر من اللزوم.

أظن بأنهما كبرا بمافيه الكفاية. تمتم سيّدنا ودفعهما الى الفرن لكي ينضجا.

ومرة أخرى بقيا لوحدهما زمنا قصيرا. فسيّدنا إنصرف وتفرغ لشؤونه الأخرى.

عاد بعد وقت ما. كان يتوقع أن يرى رغيفين بلون البرونز وبسطح مصقول ومستو مثل المرآة. الا أنه شاهد شيئا مختلفا بالمرّة. فكلا الرغيفين كان متشققا وغير مستو، وعلى السطح ظهر خط طويل ناتيء. وكان بالإمكان آنذاك الحصول على أحسن رؤية للفارق بين الإثنين. الأول كان طويلا ونحيفا أما الثاني عريضا ومفلطحا.

/ لكن لاينبغي الإكتراث لمثل هذه الأمورعند خبز العجين.

وهذا أمر يحدث لكل واحد...

وهكذا إلتقط سيّدنا الرغيف من الفرن وإنتظر حتى يبرد. وبعدها نادى الكائنات الحيّة:

/لقد خبزت لكم قطعة جميلة من الخبز.أنظروا فقط!.

تعالوا وجرّبوه!

للأسف قالوا بعد التجربة:

/ الخبز قاس مثل الحجر! وفيه لاتوجد ولو لقمة واحدة تصلح للأكل.

لمس سيّدنا الخبز. كان عليه أن يعترف لهم بالصواب. فقدكان صلبا مثل الحجر.

/ طيّب، إذا كان الأمر متعلقا بهذا الشيء فقط فبإمكاننا ان نجعله لينا!.

ونادى البحر الكبير الهائج:.

/ لقد صنعت خبزا لكنه صلب جدا لايقدر أحد على أكله.

حاول، فقد تستطيع أنت أن تلينه قليلا!.

ولبى البحر نداء سيّدنا. تصاعدت أمواجه وغطت الرغيفين.

سمح سيّدنا للرغيفين أن يستقرا في قعر البحر لفترة من الوقت.

بقيا هناك إلى أن تذكرهما سيّدنا. أخذهما من الماء وتلمسهما، كانا لايزالان صلبين. وكساهما الرمل والقليل من الكلس مثل قعر البحر.

لم يفلح البحر في تليينهما.

م/ عليّ أن أعطيه وقتا أطول / قال سيّدنا وهو يغطس العجين النحس في البحر.

وتفرغ للقضايا الأخرى. وبعد آلاف كثيرة من السنين أخرج الخبز من الماء.

وكان قد توقع الأمر!. الخبز لايزال قاسيا كالسابق لكن بالمقابل كانت تلتصق به طبقة سميكة من مزيج الرمل والكلس، كما نمت عليه الأعشاب وزحف الحلزون وإستلقت عليه الأسماك الميتة و(نجوم البحر) والمحار.

/ من الأحسن أن تجففه الشمس ويخرج منه الماء.

مسك الخبز بيده وعصره بقوة. في القعر الحجري إنشرخ شيء ما وإرتفعت الحواف في داخله قليلا.

وكان هذا ما أراده سيّدنا، أن يعثر الماء في الداخل على مخرج له. وظل الماء يسيح من هناك. عبرالأخاديد وغسل كل شيء تقريبا: الكلس والرمل. بعدها بقليل صار الرغيفان كم كانا في البدء: مازالا قاسيين ولايصلحان للطعام.

/ كما أرى لم يفلح البحر / تنهد سيّدنا / وعليّ أن أنادي من هو أقوى.

ونادى الجليد.

/ تعال وإجعل هذا الخبز لينا من أجل أن تستمريء الكائنات الحيّة طعمه!.

وظهر الجليد المطيع وتوّجه ببطء صوب الرغيفين.

وسمح سيّدنا له بالبقاء في أثناء انشغاله بالقضايا الأخرى.

مرت آلاف كثيرة من السنين وعاد سيّدنا وأزاح طبقة الجليد لكي يرى كيف هي الحال.

تبين أن الجليد قد فتت قطع الخبز وحوّلها الى غبار غطى السطح كله.

/ رائع! / إغتبط سيّدنا / بدأت الحال تبدو وليس بالصورة السيئة!.

أزاح الغطاء الجليدي كله.

وبان مشهد، والحق يقال، كابوسي: تلال طينية عارية، صحارى رملية كبيرة، صخور جبلية، أكوام من الصخور هنا وهناك.

إلا أن سيّدنا صفق بيديه ونادى:

الآن تقدر الغابة أن تأتي وتأكل طعامها!.

وسمعت البراري النداء وسارت بحميّة الى الأمام وضربت الجذور وبدأت تأكل الخبز الذي صنعه سيّدنا. وإستذاقت هذا الخبز وإلتهمته وإزدادت جبروتا.

مضى إثرها الآخرون: الطيوروالنباتات والبعوض والأفاعي والسحالي وسمك الكراكي والناس والله وحده يعلم من مضى أيضا.

وعلى خبز سيّدنا نحيا حتى اليوم. إنها قطعة خبز ضخمة وشهيّة وهبها السيّد أيانا.

# عشاء عائلي

## كازو إيشيجيرو*

فوجو نوع من الأسماك يتم صيده من قبالة شواطئ المحيط الهادي باليابان. وقد اكتسب هذا النوع من الأسماك أهمية خاصة منذ أن ماتت أمي بسبب تناول واحدة منه. يكمن السم فى الغدد الجنسية لتلك الأسماك بداخل اثنين من الأكياس الشهية. عند إعداد السمكة يجب إزالة هذين الكيسين بحذر. فأى عمل أخرق سيؤدي إلى تسرب السم إلى الأوردة. ومن أسف، ليس من السهل التأكد إذا كان ذلك تم بنجاح أم لا، فالدليل لا يظهر إلا في الأكل

التسمم بسمكة الفوجو مؤلم بشكل رهيب ويؤدى غالباً إلي الموت، فإذا ما تم تناول السمكة خلال المساء فإن الضحية عادة ما يزداد ألمها أثناء النوم، فتظل تتقلب فى العذاب لعدة ساعات ثم تموت في الصباح؟ لقد

* ولد كازو إيشيجورو فى الثامن من نوفمبر عام ١٩٥٤م فى مدينة نجازاكي باليابان وهاجر إلى بريطانيا مع عائلته فى عام ١٩٦٠ وهو فى الخامسة من عمره، ثم حصل على الجنسية البريطانية عام ١٩٨٢ .انغمس إيشيجورو فى الحياة البريطانية الثقافية والاجتماعية فصارت لغته أكثر إنجليزية من الانجليز، وهو بالفعل لا يحب أن يوصف بالكاتب اليابانى، تخرج إيشيجورو من جامعة كنت حيث حصل على درجة الليسانس فى اللغة الانجليزية والفلسفة عام ١٩٧٨ والماجستير من جامعة إيست أنجليا لدورة الكتابة الإبداعية عام ١٩٨٠.

حصل كازو إيشيجورو على العديد من الجوائز منذ أن صدرت روايته الأولى عام ١٩٨٢، من داخل بريطانيا وخارجها، أشهرها من بريطانيا: ويتبريد والبوكر، ومن الخارج اج الجوائز نويل للآداب هذه العام ٢٠١٧ ف الخامس من أكتوبر.

أصبحت هذه السمكة ذات شعبية جارفة فى اليابان بعد الحرب، حتي تم فرض لوائح شديدة الصرامة حال تناول هذه السمكة، كان الغضب كله من ممارسة عملية إخراج الأحشاء فى المطبخ، ثم دعوة الجيران والأصدقاء للوليمة.

وقت وفاة أمي كنت أعيش فى كاليفورنيا، وكانت علاقتي بوالدي متوترة إلى حد ما فى تلك الفترة، ومن ثم لم أكن أعلم الظروف المحيطة بوفاتها حتي عدت إلى طوكيو بعد عامين، على مايبدو كانت أمي ترفض دائماً تناول سمكة الفوجو، لكن فى مناسبة خاصة فعلت الاستثناء بعد أن دعيت من قبل صديقة المدرسة القديمة، لأنها كانت حريصة علي عدم الإساءة. كان أبى قد زودني بتلك التفاصيل ونحن نقود السيارة من المطار إلى منزله في منطقة كاماكورا. عندما وصلنا أخيراً كان اليوم الخريفى المشمس على وشك الإنتهاء. سألنى أبي، ونحن نجلس على أرضية الحصير في غرفة الشاي:

– هل أكلت فى الطائرة؟

– قدموا لي وجبة خفيفة.

– لابد أن تكون جائعاً، سنأكل بمجرد وصول كيكوكو.

كان والدي رجلاً ضخم المظهر مع فك حجري كبير وحاجبين أسودين غاضبين. أعتقد الآن وأنا أستعيد الأحداث أنه يشبه كثيراً تشو إن لاي، علي الرغم من أنه لا يمكن أن يقبل بهذه المقارنة، خاصة وأنه فخور بشكل خاص بالدم الساموراي النقي الذى يسيل فى العائلة، لم يكن مظهره العام بالذى يشجع على إجراء محادثة مريحة، ولا حتي طريقته الغريبة في ذكر كل

ملاحظة كما لو كانت القرار الأخير. فى الواقع، وأنا أجلس أمامه بعد ظهر ذلك اليوم، عاودتني ذاكرتى الصبيانية إلى الوقت الذى كان يضربني فيه عدة مرات على رأسي بسبب "الثرثرة مثل امرأة عجوز" حتماً لابد ان محادثتنا منذ وصولي إلي المطار قد تخللتها فترات توقف طويلة.

– آسف على ما سمعته بخصوص الشركة.

قلت ذلك عندما لم يتحدث أحد منا لبعض الوقت. فأومأ برأسه فى صرامة، وقال:

– فى الواقع لم تنته القصة هنا بعد انهيار الشركة، قتل واتانابي نفسه، لم يكن يرغب فى أن يعيش فى العار.

– فهمت.

– كنا شريكين لمدة سبع عشر عاما، رجل ذو مبدأ وشرف، لقد احترمته كثيراً جداً.

سألت:

– هل تنوي أن تمارس العمل التجاري من جديد؟

– أنا، متقاعد، أنا عجوز جداً على التورط فى مشاريع جديدة. لقد أصبحت المشاريع مختلفة جداً فى تلك الأيام. تعامل مع الأجانب، يتم عمل الأشياء على طريقتهم، لا أعرف كيف وصلنا إلي هذا، ولا حتي وتانابى.

ثم تنفس الصعداء وأضاف:

– رجل رائع. رجل ذو مبدأ.

تطل غرفة الشاي على الحديقة، من مكاني حيث أجلس استطعت أن ألحظ البئر القديمة التي كنت أعتقد وأنا طفل أنها مسكونة. تري الآن فقط عبر أوراق الأشجار السميكة. غاصت الشمس إلى أسفل وسقطت معظم الحديقة فى الظل. قال أبي:

– أنا سعيد على أية حال لأنك قررت أن تعود. آمل أن تكون أكثر من مجرد زيارة قصيرة

– لست متأكداً من خطتي.

– بالنسبة لى أنا مستعد لنسيان الماضى، كانت والدتك أيضاً مستعدة دائماً للترحيب بعودتك مرة أخري، بقدر ما كانت مستاءة من تصرفاتك.

– أقدر تعاطفكم، لكن كما قلت، لست متأكدا من خططي.

– لقد استقر فى اعتقادي الآن أنه لم يعد هناك نوايا شريرة فى عقلك.

ثم واصل:

– وإن كنت قد تأثرت ببعض المؤثرات مثل العديد من الآخرين.

– ربما ينبغى أن ننسي ذلك، كما اقترحت.

– كما تحب. ألمزيد من الشاي؟

عندئذ تردد صدي صوت فتاة عبر المنزل.

– أخيراً.

رفع أبي قدميه وأضاف:

- وصلت كيكوكو.

على الرغم من اختلافنا لسنوات، كنت أنا وأختي قريبين للغاية، تبدو متحمسة جداً عندما تراني ولفترة من الوقت لاتفعل شيئاً سوي الضحك بعصبية لكنها هدأت عندما بدأ والدي يسالها عن أوساكا وجامعتها. ردت عليه بإجابات رسمية قصيرة، ثم سألتنى بدورها بعض الأسئلة، لكن يبدو أنها خشيت تقودها أسئلتها إلي الخوض فى موضوعات محرجة. بعد فترة من الوقت، صارت المحادثة أكثر حدة منذ وصول كيكوكو. ثم وقف أبي، وهو يقول:

- لابد من تحضير العشاء. معذرة، عفواً لتطرقنا لمثل هذه المسائل، لسوف تهتم بك كيكوكو.

استراحت أختي تماماً بمجرد أن غادر أبى الحجرة وفي غصون دقائق قليلة، كانت تتحدث بحرية عن أصدقائها فى أوساكا وعن دروسها في الجامعة، ثم فجأة قررت أن علينا أن نتمشى فى الحديقة، ونقف هناك فى الشرفة.لبسنا صنادل القش التي كانت قد تركت عل سور الشرفة وخطونا إلى داخل الحديقة كان ضوء النهارد قد اختفى تماماً. قالت وهى تشعل السيجارة:

- لقد كنت سأموت علي التدخين من نصف ساعة.

- إذن لماذا لم تدخني؟

أبدت إشارات ماكرة نحو المنزل ثم ابتسمت ابتسامة شريرة. فقلت:

- أوه فهمت.

– خمن ماذا؟ لدي خليل الآن؟

– أوه، نعم؟

– إلا أننى أتسائل ماذا أعمل. لم أفكر بعد.

– مفهوم تماماً.

– أتعرف، إنه يخطط أن نذهب إلي أمريكا، ويريد أن أذهب معه بمجرد أن أنتهي من دراستي.

– فهمت. وهل تريدين الذهاب إلي أمريكا؟

– لو سافرنا سوف نسافر مجاناً

لوحت كيكوكو بإصبع الإبهام في وجهي، ثم أضافت.

– يقول الناس أن ذلك خطر، لكنني فعلت ذلك فى أوسكا، فلاضرر منه.

– فهمت. إذن ما الشيء الذي أنت غير واثقة منه.

كنا قد سرنا فى ممر ضيق وسط الشجيرات ينتهى بنا إلى البئرالقديم. وأثناء المشي لم تتوقف كيكوكو عن أخذ أنفاس الدخان من سيجارتها بشكل استعراضي.

– حسناً. لدي الكثير من الأصدقاء في أوساكا. أحب ذلك هناك، لست متأكدة أنني يمكن أن أتركهم جميعاً ورائي – وسوشي – أنا أحبه، لكنني لست متأكدة أنني أريد أن أقضي وقتاً كبيراً معه. هل فهمت؟ أوه تماماً.

ابتسمت مرة أخري ثم انصرفت عني حتي وصلت إلى البئر وقالت:

– هل تتذكر؟

وبمجرد أن لحقت بها قالت:

– كيف كنت تقول أن هذه البئر مسكونة؟!

– نعم أتذكر.

حدق كل منا فى جانب.

قالت:

– كانت أمي تقول دائماً أن هناك امرأة عجوز من محل الخضروات هى التى رأيتها تلك الليلة. لكنني لم أصدقها أبداً. ولم أخرج إلى هنا أبداً وحدي.

– لقد اعتادت ماما أن تقول لى ذلك أيضاً. حتي أنها قالت لى ذات مرة أن المرأة اعترفت أنها شبح. يبدو أنها كانت تختصرالطريق عبرالمرور بحديقتنا، أتصور أنها عانت بعض المشاكل عند تسلق هذه الجدران.

ضحكت كيكوكو بصوت عالٍ، ثم أدارت ظهرها للبئر، وركزت نظرها على الحديقة، قالت فى صوت جديد:

– لم تلمك أبداً ماما في الواقع، كما تعرف

بقيت صامتاً، فأضافت:

– لقد اعتادت أن تقول لى دائماً كيف كان ذلك غلطتهما، هي وأبى، لعدم تربيتك بشكل صحيح. وكما اعتادت أن تقول أنهما كانا أكثر حذراً معي، وذلك هو السبب في أنني جيدة جداً.

نظرت إلى أعلى وقد عادت الابتسامة الشريرة إلى وجهها، قالت:

– مسكينة أمي!

– هل تنوي العودة إلي كاليفورنيا؟

– لا أعرف، لسوف أفكر.

– ماذا حدث لها؟ لفيكى؟

قلت:

– لقد انتهي كل ذلك.

ثم أضفت:

– لم يبق لى شيء فى كاليفورنيا.

– هل تعتقد أنني يجب أن أذهب إلي هناك؟

– لم لا؟ لا أعرف. ربما سوف تحبين ذلك.

حدقت تجاه المنزل. وأضفت:

– لربما من الأفضل أن ندخل حالاً، فقد يحتاج أبي إلى بعض المساعدة فى تجهيز العشاء.

لكن أختي حدقت مرة أخرى بتمعن فى البئر وقالت:

– لا أستطيع أن أري شبحاً.

ارتفع صدي صوتها قليلاً

– هل الأب مستاء جداً من انهيار شركته؟

– لا أعرف. لا يمكنك أبداً أن تتحدث مع الأب.

ثم اعتدلت فجأة وحولت نظرها نحوي:

– هل حدثك عن واتانابي العجوز؟ ماذا فعل؟

– سمعت أنه انتحر.

– حسناً. ليس ذلك كل شيء، لقد أخذ عائلته معه. زوجته وابنتيه الصغيرتين؟

– أوه نعم؟

– هاتان الفتاتان الجميلتان، أشعل الغاز بينما كانتا نائمتين، ثم بقر معدته بسكين اللحم.

– نعم. قال لي أبي فقط، كيف كان رجلاً ذا مبدأ.

– مقزز.

قالت ذلك واستدارت عائدة إلى البئر.

– احذري وإلا سوف تسقطين فيه.

قالت:

– لا أستطيع أن أري أيه أشباح. لقد كنت تكذب علي طوال الوقت.

– لكنني لم أقل أبداً أنها تسكن داخل البئر.

– أين هى إذن؟

تطلع كل منا إلي الأشجار والشجيرات.صار الضوء فى الحديقة أكثر عتمة. وفى نهاية المطاف أشرت إلى آلة قص العشب الصغيرة على بعد عشر يردات.

– فقط هناك رأيتها. فقط هناك.

حدقنا فى المكان.

– كيف كان يبدو ذلك؟

– لم أستطع أن أري جيداً جداً. كانت الدنيا مظلمة.

– لكن لابد أنك كنت تري شيئاً ما

– كانت امرأة عجوز. كانت فقط تقف هناك وتراقبني.

ظللنا نحدق فى المكان كما لو كنا قد نومنا مغنطيسيا. قلت:

– كانت ترتدي كيمونو أبيض، وكان بعض شعرها سائياً، كان يطير فى الهواء قليلاً دفعت كيكوكو كوعها فى ذراعي وقالت:

– عليك أن تصمت. أنت تحاول أن تخيفيني مرة أخري.

داست على بقايا سيجارتها، وبعد لحظة وقفت وثم تعبير مرتبك على وجهها. ركلت بعض أعواد الصنوبر فوقها، ثم صارت ابتسامها أكثر اتساعاً. وقالت:

– تعالي نري إذا ماكان العشاء جاهزاً.

وجدنا أبي فى المطبخ منحنا نظرة سريعة، ثم واصل ما كان يقوم يعمله. قالت كيكوكو، وهي تضحك:

- أصبح أبى طاهياً ونجح فى ذلك بنفسه.

التفت ونظر إلي أختي في برود، ثم قال:

- مهارة بالكاد أنا فخور بها. كيكوكو تعالي هنا وساعديني.

لبعض اللحظات لم تتحرك أختي ثم تحركت أخيرا، وأخذت المريلة والمعلقة من الدرج. فقال:

- فقط هذه الخضروات تحتاج إلي الطهي الآن، الباقي يحتاج إلي المراقبة.

ثم تطلع إلى أعلي وتأملني بشدة لبضع ثواني ثم قال فى نهاية المطاف:

- توقعت أن تقوم بإلقاء نظرة علي المنزل.

أنزل عيدان الطعام التي كان يمسك بها وأضاف:

- لقد مر وقت طويل علي رؤيتك له.

بمجرد أن تركنا المطبخ، حدقت نحو كيكوكو، لكنها كانت قد أدارت ظهرها لي، قال أبى فى هدوء:

- فتاة طيبة.

تبعت أبى من حجرة إلى حجرة، لقد نسيت كم كان هذا المنزل واسعاً. انزلق لوح خشبى جانباً وظهرت حجرة أخري، يبدو أن كل الحجرات الأخري كانت خالية بشكل رائع. فى واحدة من تلك الحجرات التى لم يدخلها

الضوء، حدقنا فى الجدران الصلدة والحصير المفروش عبر الضوء الشاحب المتسرب من النوافذ. قال أبي:

– هذا منزل واسع جداً على رجل يعيش وحده، لافائدة كبيرة من معظم تلك الحجرات الآن لكن فى النهاية فتح أبي باب حجرة معبأة تماماً بالكتب والصحف، كانت ثمة زهور فى داخل الفازات، ولوحات على الجدران، ثم لاحظت شيئاً ما على طاولة منخفضة فى أحد أركان الحجرة. اقتربت أكثر ورأيته، كان نموذجا من البلاستيك لسفينة حربية، ذلك النوع المصنوع للأطفال. كانت موضوعا فوق بعض الصحف، وقد تناثر حوله قطع بلاستيكية صغيرة ذات لون رمادي. أخرج أبي ضحكة، ثم اقترب من الطاولة وأمسك بالنموذج.

قال:

– منذ أن فضت الشركة، ولدي كثير من الوقت.

ثم ضحك من جديد بغرابة إلى حدما. للحظة بد وجهه لطيفاً تماماً. أضاف:

– الكثير من الوقت.

قلت:

– يبدو ذلك غريباً. كنت دائماً مشغولاً للغاية.

نظر نحوي بابتسامة صغيرة:

– مشغول للغاية ربما. ربما كان ينبغى أن أكون أكثر لطفاً كأب.

ضحكت. استغرق مفكراً فى سفينته الحربية، ثم تطلع إلى وقال:

– لم أكن أريد أن أقول لك هذا. لكن ربما من الأفضل أن فعلت ذلك. فى اعتقادي أن موت أمك لم يكن مصادفة. لقد كان لديها الكثير من التخوفات وخيبات الأمل.

حدق كل منا في السفينة الحربية، وفي النهاية قلت:

– بالتأكيد، لم تكن تتوقع أمى أنني سأعيش هنا للأبد.

– من الواضح أنك لم تفهم. لم تفهم كيف يمكن أن يعنى مثل هذا لبعض الآباء والأمهات، ليس فقط فقداً لأطفالهم، بل أنهم يفقدونهم أشياء لم يفهموها بعد.

ثم أدار السفية بين أصابعه وقال:

– تلك الزوارق الصغيرة، كان يمكن – من الأفضل – أن تلصق هنا. ألا تعتقد ذلك؟

– ربما، أعتقد أنها تبدو على ما يرام.

– خلال الحرب قضيت بعض الوقت على متن سفينة حربية مثل هذه. لكن طموحي كان دائماً سلاح الطيران. أعتقد أنني أحب شيئاً كهذا. لو أن سفينتك الحربية ضربت من قبل العدو، فإن كل ما يمكن أن تفعله هو أن تقاوم وسط الماء من أجل البقاء على قيد الحياة. لكن فى الطائرة – حسناً – هنلك دائماً السلاح النهائي.

أعاد أبى النموذج مرة أخرى إلي الطاولة وقال:

- لا أعتقد أنك تؤمن بالحرب.

- ليس بالضبط.

صوب عينه علي الحجرة وقال:

- لابد أن العشاء جاهز الآن، لابد أن تكون جائعاً.

كان العشاء ينتظر فى حجرة معتمة الضوء بجوار المطبخ. وكان المصدر الوحيد للضوء فانوس كبير معلق فوق الطاولة، مما جعل بقية الحجرة تغرق في الظلال. أنحنى كل منا إلى الآخر قبل أن نبدأ تناول الطعام.

كان ثمة محادثة صغيرة، عندما أبديت بعض التعليقات المهذبة عن الطعام، وضحكت كيكوكو قليلاً. وبدا أن عصبيتها المبكرة قد عادت إليها مرة أخرى. لم يتكلم أبى لعدة دقائق.وفى الأخير قال:

- لابد أن ثمة شعورغريب ينتابك، كونك عدت إلى اليابان.

- نعم، غريب إلى حدما.

- بالفعل، ربما تشعر بالأسف لتركك أمريكا.

- قليلاً. ليس كثيراً. لم أترك ورائي الكثير، فقط بعض الحجرات الخالية.

- أفهم

حدقت عبر الطاولة، بدا وجه أبى جامداً وقاسياً فى نصف الضوء، تناولنا الطعام في صمت.

ثم لفت نظري شيء ما في الجزء الخلفى من الحجرة، فى البداية واصلت

تناول الطعام، ثم بعد ذلك تجمدت يداي، لاحظ ذلك كل من أبي وأختي وتطلعا إلى، واصلت التحديق فى الظلام خلف كتفى أبي.

– من تلك؟ التى في الصورة هناك؟

– أية صورة؟

التفت أبى قليلاً، فى محاولة منه، لتتبع موضع تحديقى.

– التى فى الأسفل. المرأة العجوز فى الكيمونو الأبيض.

أنزل أبى عصى طعامه، نظر أولا إلى الصورة، ثم إلى وقال:

– والدتك.

ثم صار صوته أكثر قوة وأضاف.

– ألم تستطع أن تتعرف على والدتك؟

– والدتي. أنت تعرف، إنه الظلام لم أستطع أن أراها جيداً.

لا أحد منا تحدث لبضع دقائق، ثم نهضت كيكوكو على قدميها. أنزلت الصورة من علي الجدار وعادت بها إلى الطاولة وأعطتها لى، فقلت:

– تبدو عجوز جداً.

قال أبى:

– التقطت هذه الصورة لها. قبل وفاتها بوقت قصير.

– لقد كان الظلام، لم أستطع أن أري بشكل جيد.

تطلعت إلى أعلى ولاحظت أن أبى يمد يده، أعطيته الصورة، نظر إليها باهتمام ثم سلمها إلى كيكوكو. فى إذعان نهضت أختي مرة أخري وأعادت الصورة إلى موضعها على الجدار.

كان هناك قدركبير قد ترك دون أن يفتح فى وسط الطاولة، عنددما جلست كيكوكو من جديد، مد أبى يده ورفع عنه الغطاء. صعدت سحابة من البخار والتفت حول الفانوس. دفع أبى القدر قليلاً نحوى، وقال:

– لابد أنك جائع.

كان ثمة جانب من وجهه غارقاً فى الظل

– شكراً لك.

تناولت عصي الطعام، كان البخار ساخناً جداً. أضفت.

– ما هذا؟

– سمك

– رائحته طيبة جداً.

فى وسط الحساء كانت شرائح من السمك قد تكورت تقريباً على شكل كرات. التقطت واحدة منها وجلبتها إلى وعائي.

– أخدم نفسك، هناك المزيد.

– شكراً لك.

أخذت أكثر قليلاً، ثم دفعت بالقدر نحو أبى وشاهدته وهو ينقل عدة

شرائح إلى وعائه. ثم شاهدنا كيكوكو، وهى تخدم نفسها بنفسها. انحني أبي قليلاً، وقال من جديد!

– لابد أنك جائعاً.

أخذ قطعة من السمك إلى فمه وبدأ يأكل، وعندئذ أخذت أيضاً قطعة ووضعتها فى فمي، بدت لينة وسمينة جداً على لسانى. قلت:

– لذيذة جداً. ما هذا؟

– سمك فقط.

– إنه طيب للغاية.

أكل ثلاثتنا في صمت. مرت عدة دقائق.

– هل تريد المزيد؟

– هل هناك ما يكفي؟

– هناك الكثير لنا جميعاً.

رفع أبي غطاء القدر، فصعد المزيد من البخار إلى أعلي. تطلعنا جميعاً إل الأمام وخدمنا أنفسنا بأنفسنا، قلت لأبي:

– خذ، إليك هذه القطعة الأخيرة.

– شكراً لك.

عندما انتهينا من الوجبة، مد أبي ذراعيه، وتثاءب بارتياح وقال:

– كيكوكو. جهزي الشاي. من فضلك.

تطلعت أختي إليه، ثم غادرت الحجرة دون أن تعلق بكلمة. نهض أبى.

– هيا نعود إلى الحجرات الأخري. الجو دافىء هنا قليلاً.

نهضت وتبعت أبي إلي داخل حجرة الشاي.،كانت النوافذ الكبير قد تركت مفتوحة لتجلب النسيم من الحديقة. لفترة من الوقت جلسنا فى صمت. قلت أخيراً:

– أبى.

– نعم.

– قالت كيكوكو لى أن واتانابي – سان قد أخد كل عائلته معه.

أخفض أبى عينيه وأومأ لى بالموافقة. لعدة دقائق بدا أنه يفكر فى عمق. قال أخيراً:

–كان واتانابي مخلصاً جداً فى عمله، وكان انهيار شركته صدمة كبيرة له، أخشي أن يكون ذلك قد أضعف حكمته.

– هل تعتقد أن ما قام به كان خطأ؟

– لماذا – بالطبع – هل تعتقد أنت خلاف ذلك؟

– لا. لا. بالطبع لا.

– هناك أشياء أخري إلى جانب العمل.

– نعم.

غرقنا فى الصمت من جديد، أتى صوت الجراد من جهة الحديقة. تطلعت إلى الخارج عبر الظلام. لم تعد البئر ظاهرة أمامى. سأل أبى:

– ما رأيك، ماذا ستفعل الآن؟ هل ستبقى فى اليابان لبعض الوقت.

– لأكن صادقاً، لم أفكر فى ذلك.

– إذا رغبت أن تبقى هنا، أقصد هنا في المنزل، فسيكون مرحباً بك جداً.ذلك إن لم تمانع فى العيش مع رجل عجوز.

– شكراً لك. سوف أفكر فى ذلك

حدقت مرة أخري فى الظلام. قال أبى:

– لكن بالطبع. هذا المنزل كئيب جداً الآن. لا شك أنك لن تعود إلى أمريكا قبل وقت طويل

– ربما. لا أعرف بعد.

– لا شك ستعرف.

لبعض الوقت بدا لى أن أبى يتأمل ظهر يديه، ثم نظر إلي أعلى وتنفس الصعداء.

– من المقرر أن تكمل كيكوكو دراستها فى الربيع المقبل، ربما سوف تريد أن تعود إلي المنزل عندئذ، إنها فتاة طيبة.

– ربما ستفعل.

– سوف تتحسن الأمور إذن.

– نعم، أنا متأكد أنها ستتحسن.

غرقنا فى الصمت مرة أخري، فى انتظار كيكوكو أن تحضر الشاي.

## أبله القرية..

### كاميلو خوسيه ثيلا*

كان اسم أبله القرية «بلاس». بلاس هيريرو مارتينيز. قبل موت بيرجيلوندو، أبله القرية السابق الذي نسي أن اسمه الحقيقي كان هيرمينجيلو، كان بلاس بالأحرى صبياً مغفلاً يسرق ثمار الإجاص، واستُخدم كضحية لضربات الجميع المجانية ولطباعهم السيئة.

كان صبياً شاحب اللون، طويل الساقان، متوحداً ورعديداً. لم تستطع القرية إعطاء تفويض لأكثر من أبله واحد. كانت اصغر من ان تتكيف مع أكثر من واحد، وبلاس هيرومارتينيز، الذي كان مدركاً لذلك تميز باحترام كبير للتقليد، فاكتفى بالتجوال حول بساتين الفاكهة وحقول الخضار سارقاً ما يستطيعه من دون أن يدنو أكثر من اللازم. وكان لا بد له أن ينتظر صابراً حتى تشييع بيرجيلوندو الطاعن في السن داخل صندوق، خشبي فيما قدماه إلى الأمام والكهنة يسيرون وراء النعش.

---

* كاميلو خوسيه سيلا: ولد في بادرون في مقاطعة لا كورونيا بغاليسيا في ١١ مايو ١٩١٦.
روائي وقاص شهير شارك في الحرب الأهلية الإسبانية وانتسب من ثم إلى جامعة مدريد. تركز أعماله السردية على الشخصيات الفقيرة وذات المنبت الوضيع من الذين تتسم حياتهم بالشجاعة، الوحشية والأنانية.
تعكس قصص وروايات سيلا بوضوح إيمانه بأن على كتّاب الأعمال السردية التعامل بقسوة بل عليهم جلد الخداع، الظلم، النفاق، والامتثال. يتميز أسلوبه السردي بذاك المزيج الخاص من التصوير الغريب وبعد النظر بل التناول السيكولوجي الحديث. وفي العام ١٩٨٩ مُنح كاميلو جائزة نوبل للآداب.
وتوفي في مدريد في ١٧ يناير ٢٠٠٢.

التقاليد هي التقاليد ويجب احترامها. كان ثمة قول رائج في البلدة مفاده أن التقاليد أهم من الملك وليس أقل أهمية من القانون. وبلاس هيريرو مارتينيز الذي فهم الحياة بالسليقة وبالدقة نفسها لكلب صيد مدرب يتبع رائحة طريدة، أدرك أن زمانه لم يأتِ بعد وأذعن بكل شجاعة أدبية على اللجوء إلى الانتظار. مع ان العكس قد يبدو صحيحاً، في هذه الحياة ثمة دائماً أوان لكل شيء.

كان لبلاس هيريرو مارتينيز رأس صغير أصلع ومستدق، إلى صدر ضيق، وساقين نحيلتين إلى نمش في الوجه وأسنان ناتئة. كان أحول العينين ويسيل لعابه. شكَّل الفتى نوعاً واضحاً للأبله، مع انطباق كل ميزة بدقة. بالنظر إليه بعناية، كما يفترض بالشخص أن يفعل، أدى بل لعب بلاس دور الأبله حتى حدود الكمال. كان دون مواربة أبله وليس من النوع الذي لا يمكن تشخيص حاله من دون طبيب.

كان طيب الطبع ورقيقاً، ودائماً ما يبتسم كعجل مريض حين يكون قد تلقى ضربة حجر، وهذا يحدث غالباً، سيما أنه لا ينطبق بالتمام على القرويين ما يمكن تسميته الأشخاص الحساسين.

إزاء تلقيه ضربة حجر يعمد بلاس هيريرتو مارتينيز صاحب الوجه الصغير الأقرب لوجه ابن مقرض بتحريك أذنيه . إحدى مواهبه . ومن ثم العناية بجرحه الأخير النازف ما يشبه سائل حبر زهري، مبتسماً رغم ذلك بطريقة يصعب وصفها فيما هو يعتني بالجرح: يبدو كأنه يلتمس من معذبيه عدم رميه بحجر آخر على الجرح الذي تسبب به الحجر الأول.

في زمان الأبله بيرجيلوندو، وبالتحديد أيام الآحاد، التي كانت الأيام التي شعر فيها بلاس أنه يمتلك بعض الحق للسير في شوارع المدينة، كان أبله قريتنا يجلس بعد القداس عند باب مقهى لويز وينتظر الساعتين أو الثلاث التي يحتاجها الزبائن لإنهاء المشروب الفاتح للشهية ومن ثم يقصدون المنزل لتناول الغداء.

حين كان مقهى لويز يفرغ تماماً، أو يكاد، من الرواد، تعلو البسمة وجه بلاس وينزلق تحت الطاولات لالتقاط أعقاب السجاير. أحياناً كانت غلته جيدة جداً. قبل سنتين على سبيل المثال كانت ثمة حفلة بهيجة جداً وقد تمكن بلاس من ملء علبته بحوالي ٧٥ عقب سيجارة. بدا كأن فخر بلاس هيريرو وفرحه يتمثلان في هذه العلبة العميقة، الجميلة، الصفراء التي رُسمت عليها صَدَفة فضلاً عن كتابة بعض الكلمات بالإنكليزية.

حين أنهى بلاس يومها عمله، ركض منقطع الأنفاس للتحدث إلى بيرجيلوندو الذي كان يومها قد غدا هرماً جداً وبالكاد يستطيع التحرك. قال له: «يا بيرجيلوندو، أنظر ما جمعت. هل هذا يرضيك؟».

أجابه بيرجيلوندو بأعلى صوت ممكن: «أجل... أجل...» من ثم حدق بإعجاب بأعقاب السجاير مع ابتسامة مقتضبة قابضاً كيفما اتفق على حوالي نصف دزينة منها لم يلبث أن ناولها إلى بلاس.

«هل قمتُ بالعمل الصحيح؟ هل أنتَ راضٍ؟».

«أجل... أجل...».

أخذ بلاس هيريرو مارتينيز الأعقاب التي جمعها، قام بفردها مخرجاً

محتوياتها ثم صنع منها أي شكل من السجاير تأتى له. أحياناً، كانت النتيجة سيجارة ثخينة، لكن في أحيان أخرى تأتي رفيعة جداً بحيث من غير الممكن تقريباً تدخينها، حظ سيئ.

دائماً ما كان بلاس يعطي أعقاب السجاير التي يجدها في مقهى لويز إلى بيرجيلوندو لأن بيرجيلوندو كان المالك الشرعي لكل أعقاب السجاير في القرية. بالمحلة، لم تكن سدى تسميته أبله القرية المصنّف. حالما جاء دور بلاس التخلص من أعقاب السجاير ساعة يشاء، لم يكن يسمح لأي قادم جديد أن يغشه.

كان من الصعب توقع ذلك! من الناحية المبدئية كان بلاس من النوع المحافظ الذي يولي التقاليد اهتماماً كبيراً، وكان مدركاً حقيقة أن بيرجيلوندو هو الأبله الرسمي للقرية.

مهما يكن، يوم وفاة بيرجيلوندو لم يستطع بلاس كبح شعور عفوي بالحبور وبدأ بالقفز والنطنطة مثل حمل في المرعى، حيث اعتاد الذهاب ليشرب. بعد انقضاء وقت قصير على ذلك أدرك أنه فعل شيئاً غلطاً ومن ثم قصد المقبرة للتكفير والانتحاب فوق رفات بيرجيلوندو، الذي لم يقدم أحد على التكفير فوق قبره، ولا بكى ولا فكر حتى بالانتحاب أو البكاء. على مدار بضعة أسابيع راح يحضر أعقاب السجاير إلى المقبرة.

بعد وضعه جانباً نصف الدزينة خاصته، يقوم بدفن البقية في قبر معلمه. لاحقاً توقف تدريجياً عن فعل ذلك وأخيراً لم يعد يكلف نفسه عناء جمع كل أعقاب السجاير. عمل ببساطة على جمع ما يحتاجه وترك البقية لمن يأتي

بعده ويكون بحاجة إليها. نسي أمر بيرجيلوندو ولاحظ حدوث أمر غريب: بدا له الانحناء لالتقاط عقب سيجارة، مع عدم التساؤل ما إذا كان هذا يخصه هو أم لا، شعوراً غريباً.

# مُرَبِّي البطّ

**مويان***

بحيرة (تشين تساو) بها الكثيرُ من السمك والجمبري، ويحيطهاالعديد من النباتات الخضراء المزدهرة الوارفة. وللسكان الذين يعيشون حول هذه البحيرة منذ أقدم العصور، عادةُ تربيةِ البطّ. كما أن هذا المكان مشهورٌ بمنتجاته من بيض البطِّ الجيد. وكان ثمة زمن، وقع فيه السكان تحت قوانين (قطعُ ذيل الرأسمالية)، وتلاشت تلك العادة. لكن القوانين أصبحت جيدة منذ عدة سنوات، ومن حينها تأتي أسرابُ البطِّ كالسحاب الأبيض الذي يتحرك بهدوء.

لي لاو جوانغ متخصص في تربية البطِّ. كل يوم يدفع القارب بالزانة ويتبع سرب البطِّ الذي يسبح أمامه في رشاقة. ويحيط بالبحيرة ثماني عشرة قرية، وفي كل قرية شخصٌ يُطلِقُ أسراب البطِّ في الماء. يوجد رجل عجوز، وفتاة، ولأنهم يلتقون دائماً في البحيرة، فهم منسجمون فيما بينهما.

في الربيع، تظهر براعم أشجار الصفصاف، وتتفتح أزهار الدرّاق، أما

* مو يان اسمه الأصلي قوان موييه، وهو من مواليد ١٧فبراير ١٩٥٥، ويعد أحد أهم الرواد في تاريخ الأدب الصيني المعاصر، ومن أبرز المجددين في فن السرد في الرواية الصينية الحديثة، وكتب خلال مشواره الأدبي إحدى عشرة رواية، تُرجمت جميعها إلى مختلف لغات العالم، وتنوعت أعماله بين القصة القصيرة والرواية والمسرحية والنثر والنصوص السينمائية، كما حصل على العديد من الجوائز الدولية وأبرزها جائزة نوبل في الآداب. التي حصل عليها في ٢٠١٢

أزهار المشمش فتكون في عنفوان تفتحها، وينمو عشبٌ طريٌ ندي، حينها يبدأ مُرَبُّو البط بالنزول بقواربهم الصغيرة إلى البحيرة ويطلقون أسراب البطِّ.

ماءُ البحيرة له لون اليشم الأخضر، وتطفو زهور اللوتس على سطحها. والضفادع تتحرك زوجاً زوجا وتصدرُ نقيقاً. إنها مفاتنُ ربيعية حقيقية، منظرٌ جميل للطيور والضفادع. وحينما نزل لاو جوانغ بقاربه، تذكر أنه يريد أن يلتقي لاو وانغ تاو مُرَبِّي البط من القرية المقابلة (قرية وانغ)، إلا أن لاو وانغ تاو لم يظهر منذ عدة أيام.

في هذا اليوم، جاءت فتاة من القرية المقابلة، تتبع سرب البطِّ. فتاة بوجه بيضاوي جميل كبيضةِ البطِّ، وعينين بلونٍ أسود عنابي، تغني أغاني الصيادين بصوتٍ عذبٍ رنان، كأنها تنثرُ لؤلؤاً على البحيرة.

كان سربا البطِّ يتقدمان جنباً إلى جنب، فقالت الفتاة:

يا عم، من أية قرية أنت؟

من قرية (لي) شرق البحيرة، قال لاو جوانغ بصوت مبحوح. وأنتِ أيتها الفتاة؟

من قرية (وانغ) غرب البحيرة.

أين لاو وانغ؟

لقد كَبُرَ في السن، فقرر الاعتزال. وجدّفت بكل قوتها واستدارت بالقارب، واستدار معها سربُ البطِّ.

مع السلامة يا عم.

وبهذه الطريقة تعرف كلٌّ منهما على الآخر.

في أحد الأيام، تقابل لاو جوانغ والفتاة في البحيرة، وبعد تبادل أطراف الحديث، سألت الفتاة بجدية:

يا عم، هل في قريتكم شخصٌ يُدعى لاو جوانغ؟

ارتبك لاو جوانغ ثم أجاب:

نعم، لماذا تسألين؟

احمر وجه الفتاة، وعضَّت شفتيها، ثم قالت:

لا شيء، أسألُ فقط.

لا أعتقد أنه كان سؤالاً عابراً، قال لاو جوانغ وقد تهدّل جفناه.

كيف هي أحوال عائلته؟

يصعبُ التكهنُ بها.

سمعتُ أن لاو جوانغ متورط، وله تاريخ، سمعتُ أنه منذ سنوات عديدة سرق عدة بطَّات من بطِّ الفريق، وقُبِضَ عليه، هل صحيحٌ أنهم جعلوه يجوب ثماني قرى في شرق البحيرة؟.

نعم، أدار لاو جوانغ قاربه، وأبعد البطَّ مُنزعجاً.

كان حديث الفتاة عن هذا الأمر كسكين اخترقت جرحاً قديماً في قلب لاو جوانغ. فحينما كانت (عصابة الأربعة) تحكم الصين، أصدرت السلطات العليا قانوناً بعدم السماح لأي شخص بتربية البطِّ، وباسم الاشتراكية شُكِّلَتْ

فِرقٌ منها فريقٌ قام بالاستيلاء على بطَّات لاو جوانغ والتي كانت تتعدى العشر بطَّات، ولا يمكن أن نتصور كَمَّ الألم الذي سببه ذلك لـ لاو جوانغ، فجميع احتياجات عائلته من زيت وملح ومال تعتمد على النكش تحت مؤخرات هذه البطَّات!. في ذلك الوقت، كان المسئول عن الشئون الهامة للقرية شخصاً كسولاً يحب الأكل، وكان يأكل البطَّات التي يأتي بها (فريقُ الاشتراكية) بمشاركةِ أصدقائه رفقاء السلاح من تيار المعارضة الذي أسسه، وكانوا لا يُبقون شيئاً منها.

ولاو جوانغ شخصٌ معروفٌ بصدقه ونزاهته في القرية، إلا أنك يجب أن تحذر شر الحليم إذا غضب، وإذا غضب غضباً شديداً فسيُقدمُ على فعل شيءٍ سخيف. فقد تسلل لاو جوانغ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، ووصل إلى السياج الذي يقبع وراءه البطّ، وقام بالاستيلاء على بطّتين، إلا أن حظه كان سيئاً للغاية، فقد قبض عليه عساكرُ الحراسةِ الليلة.

لم يضربه المسئول، ولم يشتمه أيضاً، بل قام بربط البطَّتين وعلَّقهما على عنقه، وجعله يجوب ثماني قرى في شرق البحيرة. ورافق المسئولَ الفريقُ، وجنديٌ يدق على طبلة، وجنديان يحملان بندقيتين. وأشار المسئولُ إلى جميع الناس، كمَنْ يقدم عرضاً لترويض القرود. وبسبب ذلك كاد لاو جوانغ أن يشنقَ نفسَه.

وعندما ذكرت الفتاة ذلك الأمر، جاش الغضبُ في صدره ولكنه تمالك نفسه. ومنذ ذلك الوقت، أصبح يعاملها باستهجان، ويحاول قدر الإمكان تجنبَ مقابلتها، إلا أنه لم ينجح، فكان يعاملها ببرودٍ واضح وعدم اهتمام.

بينما الفتاة تعامله بحفاوةٍ وود. وكان لاو جوانغ يبدي استجابة لهذه الحفاوة على وجهه، أما في قلبه فكان يشتمها قائلاً: أنظري إليكِ، يا مسحوق الشبوط، تبتسمين وتتحدثين وكأن شيئاً لم يكن.

وفي غمضة عين، جاء فصل الصيف، وغيَّرت البحيرة مظهرها إلى منظر آخر جميل. تفتحت زهور اللوتس، وغمرت البحيرة بأريج هادئ طوال اليوم. وفي أحد الأيام، تغير الجو الصحو المشمس، وامتلأت السماء بالغيوم السوداء، ودوَّى البرق مصحوباً بأمطار غزيرة ورياح شديدة. وصل لاو جوانغ بصعوبة إلى سرب البطِّ، وكان مبتلاً كدجاجة في صحن حساء. بعد هذه الأمطار والجو المتقلب، أصبح الطقس في غاية الصفاء والإشراق، واخضرت الأعشاب المائية على سطح البحيرة مصحوبة بلون أزرق، أما أوراق اللوتس والقصب، فكانت تحمل قطرات ماء صافية كحبات اللؤلؤ. وإلى جانب نباتات القصب، وجد لاو جوانغ ما يزيد على عشر بطَّات، وكان يعلم أن هذه البطَّات قد شردت عن صاحبها وقتَ تقلبِ الطقس. يا له من بطٍّ جميل!، قال وهو يُبدي إعجابه بالبطَّات البيضاء.

إن رؤية هذه البطَّات البيضاء كالثلج، وأجسامها الكبيرة اليافعة، يبعث الإعجاب في النفس. وتذكر لاو جوانغ فجأة حديث ابنه الذي يعمل في محطة التقنية الزراعية لكومونة قرية (وانغ) شرق البحيرة، أنهم قد استوردوا بطَّات أصيلة من ضواحي بكين، هل يُعقل أن تكون هي؟، هكذا كان لاو جوانغ يفكر وهو يضم هذه البطَّات إلى سربه.

في اليوم التالي، حينما نزل البحيرة، صادف الفتاة.

يا عم، هل صادفت عدة بطَّات في طريقك؟، لقد شردت أمس بسبب الطقس السيء، عندما عدت إلى المنزل وعددتها، وجدتها ينقصون أربع عشرة بطَّة، لقد اشتريتها مؤخراً من محطة التقنية الزراعية، ولم أستطع النوم البارحة بسبب القلق.

أيتها الفتاة، أنت تسألين الرجل المناسب. عندما رأى لاو جوانغ قلق الفتاة، نسي ما حدث في الأيام السابقة، وأشار إلى سربه قائلاً: لا تقلقي، لم ينقصوا بطَّة، إنها هنا.

شكراً جزيلاً يا عم، سآتي لأخذها.

سآتي أنا، أدار لاو جوانغ القارب، وساق الأربع عشرة بطَّة ناحية الفتاة، وصاحت الفتاة من الفرحة، وعادت البطَّات إلى سربها.

يا عم، نحن نرى بعضنا البعض ونرعى البطَّ منذ ستة شهور، ولم أعرف اسمك حتى الآن. هكذا قالت وهي تجدف ناحية قاربه، وتسأل بصوتٍ كمَنْ يغني.

لقبي (لي)، واسمي لاو جوانغ.

آه!، أنت تكون... وي لين... لي وي لين، لا، التقني لي.......

نعم، أنا والد لي وي لين، رفع لي لاو جوانغ لحيته وكأنه يريد أن يشاكس الفتاة وقال: أنا هو لي لاو جوانغ الذي سرق البطَّتين وجاب القرى.

صرخت الفتاة من المفاجأة، وجحظت عيناها كحبتي مشمش، واكتسى وجهها بحمرة كزهرة لوتس.

شكراً جزيلاً، حيته بسرعة، واستدارت بالقارب، ولحقت البطَّ، وفرت يائسة.

أيتها الفتاة، أنت تعرفين ولدي وي لين، ابعثي له هذه الرسالة، أخبريه أن يحضر معه عدة بطَّات أصيلة!"، قال بصوتٍ عال.

واعترض القصبُ طريقَ الفتاة والبطّ.

أخذ لي لاو جوانغ نفساً عميقاً، وشَعُرَ بالسرور والراحة، وراح يحدث نفسه قائلاً: هذه الفتاة، ملامحها جميلة، وأخلاقها جيدة، لا عجب أن أشخاصاً في هذه البحيرة يتمتعون بجمالٍ كجمالِ هذه الفتاة.

# الغنيمة

**نادين جوردماير***

في أحد أيام عصرنا الحالي، حدث زلزال قوي: ولكنه في هذه المرة كان أكبر ما تمّ تسجيله قوةً منذ اختراع مقياس ريختر الذي أتاح لنا قياس التحذيرات الغامضة. ولقد أدى هذا الزلزال إلى تغييرات واسعة النطاق، فهذه الهزات تتسبب غالبًا في إحداث فيضانات، بينما هذا الزلزال الضخم أحدث فعلاً عكسيًا، فقد تراجع المحيط. وانزاح الستار عن الطبقة الأكثر غموضًا من عالمنا وهو قاع البحر بما يحتويه من حطام السفن الغارقة وواجهات المنازل وأوعية دورات المياه وشاشات التلفاز وعربات البريد وأجسام طائرات وتماثيل من الرخام ومدافع كلاشينكوف والأجزاء المعدنية من حافلات السائحين وغسالات أطباق أتوماتيكية وحاسب آلي وعملات تحولت إلى أحجار. أما النظرات المذهولة فقد وضحت بين كل هذه الأشياء، وكانت للسكان الذين

---

* نادين جوردماير كاتبة هولندية بيضاء ولدت عام ١٩٢٣، وخلعت جلباب وطنها المستعمر لتقف مساندة وداعمة لشعب جنوب افريقيا فى طريقه نحو الاستقلال.

كان نظام الأبارتهايد نظاما لا يجاريه نظام فى التمييز العرقى حيث يعيش الرجل الأسود أسوأ حالات المعيشة حيث يظل دائما خادما للرجل الابيض لا لشيء سوى لأن لونه مظلم والآخر مشرق.

فى ظل تلك الظروف كتبت نادين عكس التيار. رفضت سياسات قومها، وانتقدت توجهات وطنها ووقفت إلى جوار الشعب المضطهد برواياتها وقصصها التى استحقت عنها جائزة نوبل عام ١٩٩١، ومن قبلها جوائز البوكر، ومن أبرز أعمال نادين جورديمر روايات «صاحب الحيازة»، «عالم الغرباء»، «لعبة الطبيعة»، «شعب يوليو»، و«ابنة بيرجر». توفيت في مدينة جوهانسبرج في ١٣ يوليو ٢٠١٤ عن تسعين عاما.

هربوا من منازلهم المهدمة إلى التلال. وعلى الرغم من الصرخات والانهيارات الأرضية التي تسببت في رعبهم، فقد كان يسيطر على المكان الصمت العاري. وتلألأ زبد البحر فوق كل هذه الأشياء، ومن المفترض أن الوقت لا ولم يتواجد هناك على الإطلاق، حيث إن مادية الماضي والحاضر لم يكن لها ترتيب زمني، حيث إن الجميع كانوا شخصًا واحدًا وكانوا لا شيء. وقد هُرع الجميع لأخذ كل ما يستطيعون وضع أيديهم عليه، خاصة الأشياء التي كانت تعتبر ذات قيمة في وقت ما، ولكن ماهذا؟ حسنًا، شخصًا ما يعلم، هذا لابد أنه يخص أحد الأغنياء، ولكنه ملكي الآن. وإذا لم تقم بسلب كل شيء هناك، فشخص آخر سيقوم بذلك، وزلت الأقدام وانزلقت على العشب البحري وغرقت داخل الرمال المشبعة بالماء وفغرت نباتات البحر فمها في دهشة نتيجة لأفعالهم، ولم يلحظ أحد عدم وجود أي أسماك، فقد أزيلت الكائنات الحية لهذه الأرض التي تمّ اكتشافها مع المياه. أما الفرصة العادية التي أتيحت للمواطنين لنهب المتاجر أثناء الانتفاضات السياسية لا يمكن مقارنتها بما حدث.

ومنحت البهجة المتسمة بالعربدة كل من الرجال والسيدات وأطفالهم القوة للتخلص من كل شيء لم يرغبوا به داخل الوحل والرمال، بالإضافة إلى الإسراع من مشيتهم المذهلة أثناء تجولهم، وهذا كان يمثل أكثر من مجرد ربح نتيجة لظروف طارئة، حيث كان سلبًا لقوة الطبيعة التي كانوا يهربون أمامها عاجزين. خذ، خذ؛ واستطاعوا تناسي حطام منازلهم وفقد ممتلكاتهم هناك أثناء عمليات السلب. وقد خرقت صيحاتهم لأحدهم الآخر الصمت الذي كان يلف المكان وأثناء هذه الصيحات التي كانت تشبه صيحات طائر النورس الغائب، لم يلتفتوا إلى قرب صوت بعيد يماثل الرياح الشديدة. وعندئذ عاد البحر مرة أخرى وابتلعهم لينضموا إلى كنوزه.

# الضاحك

## هاينريش بول*

عندما أُسأل عن مهنتي يتملكني شعور حاد بالإحراج: وجهي يحمر، أتلعثم، أنا الذي ينظر إلي الجميع كشخص واثق من نفسه الى أبعد الحدود. أحسد الناس الذين بوسعهم الإجابة هكذا: أنا بنّاء. أنا مصفف شعر، محاسب، كاتب. أحسدهم على البساطة التي بها يجيبون، ذلك ان جميع هذه المهن تشرح نفسها بنفسها ولا تستدعي توضيحات مسهبة. أنا، بالمقابل، أجدني مضطرا للإجابة على أسئلة من هذا القبيل هكذا:

أنا ضَاحِك. اعتراف من هذا النّوع يستدعي اعترافا آخر، كوني مجبر

* كتب الأديب الألمانيّ هنريش بول (١٩١٧ ـ ١٩٨٥) في أنواع شتّى: الرواية، القصة القصيرة، الشعر، فاستحقّ جائزة جورج بوشنر ١٩٦٧، التي أهّلته عن جدارة لنيل جائزة نوبل في الآداب ١٩٧٢. كان يصف ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية برؤى أخلاقية عميقة تستهدف القيم المادية التي ميّزت المجتمع الألمانيّ بعد الحرب. كان أبوه نجّاراً، ونحّاتاً أحياناً، وقد فرّ أسلافه من إنجلترا، هرباً من اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وكان بول من القلائل الذين لم ينضمّوا إلى «شبيبة هتلر». لكنه جُرح أربع مرات، وفي نهاية الحرب انتهى به الحال سجيناً في معسكر بفرنسا.

بدأ هنريش بول حياته الأدبية في شبابه شاعراً، ثم كاتب قصة، حتى استقرّ أخيراً على شكل الرواية. وتدور رواياته حول مآسي حياة الجنود طيلة الحرب، وآيات العنف والاضطهاد التي شهدها في شبابه وطيلة خدمته العسكرية. بعين الصقر ودأب الدودة، راح يوصّف واقع الحياة المعاصرة في المجتمع الألمانيّ ما بعد الحرب. وقد ساد زعم في بداية ستينيات القرن ٢٠ أن هنريش بول تعامل غير ذات مرة مع المخابرات الأمريكية (CIA)، لكنه ظلّ ناشطاً سياسياً حتى وفاته، إضافة إلى تدريسه في جامعات ألمانيا، وجامعات أُخر.

على الإجابة بصدق عن سؤال إضافي: " هل تكسب لقمة عيشك من هذا العمل" بالإيجاب.

أنا فعلا أعيش من ضحكي، بل أستطيع القول إنني أعيش بشكل جيد، ذلك أن ضحكي، بتعبير تجاري، مطلوب في السّوق.

أنا ضاحك جيد، ضاحك محنك، لا أحد بوسعه مجاراتي في الضّحك، لا أحد بوسعه السيطرة على الفروقات الدقيقة لهذا الفنّ مثلما أفعل.

لفترة طويلة قدمت نفسي- تحاشيا للتفسيرات المزعجة- بوصفي ممثلا، غير أن تعبيرات وجهي ومهارات التحدث لدي من المحدودية بحيث تجعل هذا التوصيف يبدو منافيا للحقيقة: أنا ضاحك. لست مهرجا ولا فنانا فكاهيا، أنا لا أبهج الناس، أنا أعرض البهجة: أضحك مثل إمبراطور روماني أو مثل خريج مدرسة ثانوية مرهف الإحساس، ضحك القرن ١٧ مألوف لدي تماما مثل ضحك القرن١٩ وإذا اقتضى الأمر فإنه بمقدوري أن أَضحَكَ كلّ العصُور، كل الطّبقات الإجتماعية، كل الفئات العمرية: لقد تعلمت كل هذا كما يتعلم المرء ربط الأحذية. الضحك على الطريقة الأمريكية يترجرج في صدري، على الطريقة الإفريقية: ضحك أبيض، أحمر، أصفر- ومقابل قدر معين من المال بإمكاني أن أجعله يتعالى وفقا لرغبة متعهد العرض بالضبط.

لقد صرت شخصا لا غنى عنه، أضحك في الأسطوانات، في الأشرطة المسجلة، ومديروا المسرحيات الإذاعية يعاملونني بكل تقدير واحترام. أنا أضحك بمزاج سيء، بمزاج معتدل، بشكل هستيري، أضحك مثل سائق

مترو أو كمتدرب في قسم مصنع أغذية؛ ضحك الصّباح، ضحك المساء، الضحك الليلي وضحك أول الفجر، باختصار: حيثما وحالما يحتاج إلىً الضحك، فإنني أقوم بذلك على أكمل وجه.

سوف تصدقونني إن قلت بأن مهنة من هذا النوع مجهدة، خاصة أنه علي، وهنا مربط الفرس، أن أتحكم أيضاً في عدوى الضّحك؛ وبالنتيجة، صرت شخصا لا غنى عنه حتى بالنسبة للكوميديين من الدرجتين الثالثة والرابعة، أولئك الذين كانوا يرتجفون، ولهم العذر، خوفا من أن يفلت منهم عنصر المفاجأة في القفلة النهائية. فقد كنت أجلس كل ليلة تقريبا في قاعة الموسيقى كمصفق مستأجر، لأجل أن أشيع عدوى الضحك بين المشاهدين، كلّما طفت على السطح النقاط الضعيفة للبرنامج.

يتعين أن يحدث كلّ شيء بدقة: ضحكي العميق المجلجل يجب أن يتم لا قبل الأوان ولا بعده، بل في الوقت المناسب تماما: عندئذ أنفجر ضاحكا وفقا للخطة المرسومة، فيتعالى هدير الجمهور مع ضحكي، وتنجح القفلة.

وعلى الفور أهرول مرهقا إلى غرفة تغيير الملابس، ألقي علي معطفي متنفسا الصعداء أخيرا لأنني أتممت عملي. وحين أصل إلى البيت غالبا ما أجد برقيات بانتظاري:" بحاجة إلى ضحكك. التسجيل يوم الثلاثاء". وبعد ساعات قليلة أكون جالسا في قطار شديد الحرارة، أندب حظّي.

بإمكان أي كان أن يدرك أنني لا أميل كثيراً إلى الضحك بعد أوقات العمل وأثناء العطل: يشعر المزارع بالسرور عندما يكون بإمكانه نسيان البقرة، ويبتهج البناء عندما يكون بإمكانه نسيان لوح الملاط، والنجّارون

غالبا ما توجد في بيوتهم أبواب مكسورة، أو أدراج لا تفتح إلا بشق الأنفس. بائعو الحلويات يحبون المخللات، الجزّارون يحبون المارصبان، الخباز يفضل النقانق على الخبز، مصارعو الثيران يحبون تربية الحمام، الملاكمون يعتلي وجوههم الشحوب حين يصاب أبناؤهم بالرعاف، أفهم كل هذه الأمور، ذلك أنني لا أضحك إطلاقا بعد العمل. أنا إنسان مفرط في الجدية، حتّى أنهم يعتبرونني، ربما عن حق، متشائما.

في السنوات الأولى من زواجنا غالبا ما كانت زوجتي تقول لي: "إضحك قليلا يا رجل!"، لكن، بمرور الوقت، إتضح لها أنني لا أستطيع أن أحقق لها هذه الرّغبة.

أشعر بالسّعادة عندما أسمح لعضلات وجهي المتشنّجة وذهني المجهد بالإسترخاء من خلال التحلّي بجدية عميقة. أجل! حتّى ضحك الآخرين يصيبني بالتّوتّر، لأنه يذكرني، بشكل ملحّ، بمهنتي. ومع ذلك أزعم أني أصبحت أعيش حياة هادئة، زواجا يسوده السّلام، ذلك ان زوجتي بدورها تعلّمت الضّحك: يحدث أن أضبطها، من وقت لآخر، متلبّسة بابتسامة، حينها أبتسم بدوري. إعتدنا على الحديث بصوت خافت، فأنا أكره ضوضاء قاعات الموسيقى، أكره الضوضاء التي تعلو في ممرات الإستقبال. الناس الذين لا يعرفونني يعتبرونني إنسانا مغلقا على ذاته. ربما كنت كذلك، لأنني غالبا ما أكون مجبرا على فتح فمي لأضحك.

هكذا بسحنة خالية من أي تعبير صرت أقضي حياتي المقدرة لي على الأرض. فقط يحدث، من حين لآخر، أن أسمح لنفسي بابتسامة لطيفة، وكثيرا

ما أتساءل عما إذا كنت يوما ما قد ضحكت بالمرة. أعتقد: لا. إخوتي يحرصون على القول بأنني كنت على الدوام ولدا جادًّا إلى أبعد الحدود. خلاصة القول: صرت أعرف الضحك بشتى الطرق، غير أني لا أعرف ضحكي الخاص.

## أغسطس

**هيرمان هسه***

"كانت تقيم في شارع " موستاكر" امرأة في ريعان الصبا، فقدت زوجها إثر حادث أليم ولم يمض على زواجها غير وقت قصير. وهاهي ذي قابعة في حجرتها الضيقة، فقيرة مهجورة، تنتظر طفلها الذي قدر له أن يولد يتيماً. ولما كانت تعاني وحدة لا يؤنسها فيها أي شيء، استقرت خواطرها دون انقطاع على الطفل المنتظر،

لم تدع شيئا جميلا رائعا مرغوبا فيه دون أن تتمناه وتتطلع إليه، وتحلم به لطفلها الصغير، فلم يكن يليق به أقل من قصر كبير مشيد بالحجارة، له نوافذ كبيرة من البلّور، تحيط به حديقة تتوسطها نافورة. أما بالنسبة لمهنته، فكان لا بد أن يكون على الأقل أستاذا في الجامعة أو ملكاً.

وكان يجاور السيدة "اليزابيث" عجوز طاعن في السن، أشيب الشعر،

---

* هيرمان هسه ولد في كالف في ألمانيا في ٢ يوليو ١٨٧٧ وتوفي في عام ٩ أغسطس ١٩٦٢؛ وهو كاتب سويسري من أصل ألماني، عاش بداية شبابه مع عائلته المحافظة وجوها المدافع عن البروتستانتية بشكل مفرط؛ وكان هذا السبب الذي دفعه للهرب والاستقلال عن السلطة العائلية والاعتماد على نفسه والانخراط في مجال العمل وبشكل قاسي، حيث بدأ عمله ساعاتيا ثم بائع كتب في مكتبة، بعدها اتخذ التأليف والكتابة منهجا في حياته وعمله، وتزوج ثلاث مرات.
على الرغم من أن توجهه الأدبي في بادئ الأمر كان صوب الشعر إلا أنه في ما بعد ألف روايات فلسفية عديدة ومتنوعة؛ وكان يغلب على بعض الروايات طابع التفكر العقائدي المتشكك مثل رواية دميان؛ وحصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٦

ضئيل الجسم، لا يبرح منزله إلا أحيانا، فإذا راق له أن يفعل ذلك وضع على رأسه قلنسوة تتدلى منها شرابة، وحمل مظلة خضراء عفا عليها الدهر، صنعت أسلاكها من عظام الحوت، وكان الأطفال يخشونه، والكبار يتهامسون فيما بينهم بأنه لابد أن تكون له أسبابه القوية التي تدفعه إلى حياة العزلة التي يحياها، وكانت تنقضي فترات طويلة لا يكاد يشاهده فيها أحد، إلا أنه قد يحدث أحيانا في إحدى الأمسيات أن تنبعث من منزله الصغير الخرب موسيقى رقيقة كأنها تخرج من عدد كبير من الآلات الدقيقة المرهفة. وحينئذ كان الأطفال العابرون يسألون أمهاتهم: أهي ملائكة تلك التي تنشد في الداخل، أم تراها جنيات؟ غير أن أمهاتهم كن يجهلن كل شيء عن هذا الأمر، فيقلن: "كلا.. كلا، إنه لابد أن يكون صندوقا موسيقيا."

هذا الرجل الضئيل الذي كان يعرفه جيرانه باسم "السيد بنسفاجنر"، كانت تربطه بالسيدة "اليزابيث" صداقة من نوع غريب. والواقع أن أحدهما لم يكن يتحدث إلى الآخر أبدا، ولكن الشيخ العجوز كان ينحني انحناءة مليئة بالود كلما عبر نافذتها، وكانت ترد عليه بإطراقة من رأسها في عرفان بالجميل، وفي كثير من الميل إليه. وكان كل منهما يحدث نفسه قائلا: "لو أن الأمور ساءت بالنسبة إلي، فسوف أذهب بكل تأكيد لطلب المعونة من منزل جاري" فإذا هبط الظلام جلست السيدة "اليزابيث" وحيدة إلى نافذتها، يعاودها الأسى على زوجها الراحل المحبوب، أو ربما فكرت في طفلها المرتقب، فراودتها الأحلام، فلا يلبث جارها العجوز أن يفتح نافذته متلطفا؛ لتنطلق من حجرته المعتمة أنغام ناعمة مريحة فضية مثل نور القمر حين يتسلل بين السحب. أما السيدة "اليزابيث" فكانت تتعهد من جانبها بضعة

من نباتات الجيرانيوم القديمة تتسلق نافذته الخلفية، وكان ينسى دائما أن يرويها، ولكنها كانت دائمة الخضرة، حافلة بالأزهار، خالية من أية ورقة ذابلة؛ لأن السيدة اليزابيث كانت ترعاها في وقت مبكر كل صباح.

وذات مساء قارس البرد عاصف الريح كان الموسم فيه يتجه صوب الخريف، وقد خلا شارع "موستاكر" من الناس، أحست المرأة المسكينة بالمخاض، فارتاعت لأنها كانت وحدها تماما، ولكن عندما أوغل الليل، أقبلت امرأة عجوز تحمل في يدها مصباحا، فدخلت المنزل، وشرعت تغلي الما، وتعد البياضات، وتقوم بكل ما يحتاج إليه طفل يجيء إلى العالم، واستسلمت السيدة " اليزابث" للرعاية في صمت، ولم تنبس بشيء، حتى إذا ولد الطفل، ولف في قماط ناعم جديد، ودخل في أول يوم له على الأرض، سألت المرأة العجوز: متى جاءت؟

فأجابتها المرأة: "لقد أرسلني السيد بنسفاجنر" وسرعان ما غشى النوم الأم التي أنهكها التعب. وعندما استيقظت في الصباح، وجدت لبنا مغليا في انتظارها وكل شيء في الحجرة مرتبا في عناية فائقة، وإلى جانبها، رقد ابنها الصغير يصرخ من الجوع. غير أن المرأة العجوز كانت قد رحلت، فضمت السيدة "اليزابيث" الطفل إلى صدرها، وسرها أنه جميل قوي. وتذكرت أباه الراحل الذي لم يعش حتى يراه، فاغرورقت عيناها بالدموع، ولكنها احتضنت الطفل اليتيم الصغير، وابتسمت مرة أخرى، ثم عادت إلى النوم هي وصغيرها. فلما استيقظت، كان هناك مزيد من اللبن، وطبق جاهز من الحساء، ووجدت الطفل ملفوفا في أغطية نظيفة.

ولم تلبث الأم أن استردت صحتها وعافيتها، بحيث استطاعت أن ترعى نفسها وطفلها "أغسطس" وأدركت أنه لابد من تعميد ابنها، ولكنها لا تجد له إشبينا. وذات مساء، عندما أقبل الغسق، وانطلقت الموسيقى العذبة مرة أخرى من المنزل الصغير المجاور، ذهبت إلى باب السيد "بنسفاجنر"، وطرقته مترددة، فاستقبلها بصيغة ودية، وقال لها: " ادخلي!" وفجأة توقفت الموسيقى، وفي الحجرة شاهدت مائدة صغيرة عتيقة، يعلوها مصباح وكتاب. وكل شيء فيها عادي كما ينبغي أن يكون.

وقالت السيدة "اليزابيث": جئت لأشكرك على تلك المرأة الطيبة التي أرسلتها إليّ وأرغب في أن أدفع أجرها حتى أستطيع العودة إلى العمل وكسب شيء من المال، غير أنني مهمومة بشيء آخر فلا بد من تعميد الطفل، وتسميته أغسطس على اسم أبيه، ولكنني لا أعرف أحدا، ولا أجد له إشبينا.

قال جارها وهو يتخلل بأصابعه لحيته التي وخطها الشيب: "أجل.. لقد فكرت في هذا أيضا، وأحسب أنه من الخير أن تجدي له إشبينا عطوفا غنيا يمكن أن يتعهده إذا مسك أذى، إنني وحيد أيضا وعجوز وليس لي سوى أصدقاء قلائل؛ ولهذا لا أستطيع أن أوصي بأحد، اللهم إلا نفسي، إذا تقبلت ذلك.

وكان هذا العرض مبعث سعادة للأم المسكينة، فشكرت الرجل العجوز ووافقت في حماسة. وفي يوم الأحد التالي، حملت الطفل إلى الكنيسة، حيث قاموا بتعميده وهناك ظهرت السيدة العجوز أيضا، ومنحت الطفل قطعة نقود فضية، وعندما اعتذرت السيدة اليزابيث عن قبولها، قالت العجوز:

"كلا.. خذيها، فأنا امرأة عجوز ولدي ما أحتاج إليه... ولعل هذه القطعة من النقود تجلب له الحظ، وأنا سعيدة إذا أسديت للسيد بنسفاجنر هذا الجميل، فنحن صديقان قديمان".

وذهبا معا إلى حجرة السيدة "اليزابيث"، فقدمت القهوة لضيفها، وكان "السيد بنسفاجنر" قد أحضر كعكة، هكذا تحولت المناسبة إلى حفل تعميد حقيقي. وبعد أن فرغوا من الطعام والشراب، وكان الطفل قد خلد إلى النوم منذ أمد بعيد، قال الشيخ العجوز على استحياء: "الآن وقد أصبحت إشبين أغسطس الصغير، كنت أحب أن أهدي إليه قصر ملك، وأن أنفحه كيسا مليئا بالقطع الذهبية، إلا أن هذه أشياء لا أملكها، ولا يسعني إلا أن أضيف قطعة فضية إلى القطعة التي جادت بها جارتنا، وعلى كل حال، ما أستطيع أن أفعله له، سأفعله، وليس من شك أنك أردت لابنك الصغير ما تشتهيه الأم من أشياء جميلة رائعة. والآن، فكري جيدا في الشيء الذي يبدو لك أفضل ما تشتهينه له، وسأدبر الأمر؛ لكي يتحقق ما تشتهين. لديك أمنية واحدة لطفلك أيا كانت، أمنية واحدة فحسب، أمعني الفكر. وفي هذا المساء، عندما تسمعين الموسيقى من صندوقي، اهمسي بأمنيتك في الأذن اليسرى لطفلك الصغير، وستتحقق الأمنية."

وما كاد ينتهي من قوله، حتى خرج مغادرا الحجرة تصحبه الجارة العجوز، تاركين السيدة اليزابيث في حالة من الذهول. ولولا أنها أبصرت قطعتي النقود في المهد والكعكة على المائدة، لظنت أن الأمر لا يعدو أن يكون حلما. جلست إلى جوار المهد، وهي تهز طفلها، على حين استغرقت في التأمل واستعراض كثير من الأمنيات الجميلة. وخطر لها لأول وهلة أن تجعله غنيا

وسيما، ثم خطر لها أن تجعله قويا قوة خارقة، ثم لماحا، ذكيا، ولكنها شعرت في كل اختيار بشيء من التردد، وانتهت أخيرا إلى أن هذا كله لا يعدو أن يكون مزاحا أراد العجوز أن يداعبها به.

وساد الظلام فعلا، وكاد النعاس يغلبها وهي جالسة بجوار المهد، فقد أنهكها التعب على إثر قيامها بدور المضيفة، ومن متاعبها، وتفكيرها في تلك الأمنيات الكثيرة. وفجأة تناهت إليها من الباب المجاور، موسيقى لطيفة، أجمل وأرق من أية ألحان يمكن أن تنبعث من صندوق موسيقى. وأجفلت السيدة "اليزابيث" عند سماعها ذلك الصوت، وتذكرت. وآمنت الآن مرة أخرى بجارها "السيد بنسفاجنر" وبهديته بوصفه إشبينا، ولكنها كلما أمعنت الفكر، واشتدت رغبتها في أن تستقر على أمنية، اشتد عقلها حيرة، وعجزت عن اختيار أي شيء.

وجدت نفسها في كرب شديد، فانسكبت الدموع من عينيها، وهناك ازدادت الموسيقى نعومة وخفوتا، وأدركت أنها إن لم تبد أمنيتها في تلك اللحظة فقد يفوت الأوان.

تنهدت بصوت مرتفع، وانحنت على الطفل، وهمست في أذنه اليسرى: ابني الصغير، أتمنى لك – وكلما ازدادت الموسيقى خفوتا استبد بها الفزع. فقالت مسرعة: "أتمنى لك أن يحبك كل إنسان".

# ووش

**وليم فوكنر***

وقف ستبن بجانب سرير القش الذي استلقت عليه الأم وطفلها، وبين الألواح الخشبية للجدار سقطت أشعة الشمس الباكرة بضربات قلم رصاص طويلة تستقر بين قدميه المتباعدتين وعلى سوط الركوب في يده تمر عبر خيال الأم الساكن، التي أخذت تنظر إليه بعينين حزينتين غامضتين، الطفل إلى جانبها كان ملفوفا بقطعة قماش مهترئة ولكن نظيفة، خلفهم كانت عجوز زنجية تجلس القرفصاء بقرب الموقد حيث نار ضئيلة لا زالت فيه.

"حسنا، ميلي"، قال ستبن، "من السيئ أنك لست فرسا، وإلا كنت سأعطيك مربطا معتبرا في الإسطبل".

سكنت الفتاة على فراش القش دون حراك، استمرت بالنظر إليه فحسب دون أي تعبير بوجه شاب حزين وغامض لا زال شاحبا من أثر المخاض، ستبن تحرك ليظهر خلال خطوط الشمس المتشظية وجه رجل ستيني، قال بهدوء للزنجية المقرفصة: "جريزلدا ولدت هذا الصباح".

---

* ويليام كاثبيرت فوكنر (٢٥ سبتمبر ١٨٩٧ – ٦ يوليو ١٩٦٢)

فوكنر واحد من أشهر الكتّاب في الأدب الأمريكي عمومًا والأدب الجنوبي على وجه التحديد. برغم أن أعماله كانت قد نُشِرت منذ عام ١٩١٩ وغالبًا خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وصلت شهرة فوكنر إلى ذروتها عند نشر مؤلف مالكولم كاولي فوكنر المحمول وفوزه بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٩

سألت الزنجية:"حصانا أم فرس؟"

"حصان، مهر جيد لعين... ما هذه؟"، وأشار إلى القش باليد التي حمل بها السوط.

"هذه فرس، أخمن ذلك"

"هاه"، قال ستبن،"مهر جميل لعين، سيكون بصقة وصورة من روب روي عندما ركبته وانطلقت شمالا في ٦١، هل تذكرين؟"

"أجل، سيدي"

ألقى نظرة خاطفة تجاه القش، ولا يمكن لأحد التحديد إن كانت الفتاة تنظر إليه أم لا، مرة أخرى أشار بسوطه إلى سرير القش."افعلي كل ما يحتاجانه بكل ما يتطلب ذلك منك"، خرج مارا خلال ممر الباب المتصدع ومشى بين صفوف الحشائش (التي انحنت على طول الرواق مقابل المنجل الذي استعاره ووش منه قبل ثلاثة أشهر لقصها) حيث كان حصانه ينتظر وووش يمسك له العنان.

عندما ركب الكولونيل ستبن لمحاربة اليانكي*، لم يذهب ووش. وكان يقول لكل من يسأل وبعض من لا يسألون أيضا:"إني أعتني بمكان السيد الجوهري وزنوجه"، كان يبدو كالحا، مصابا بالملاريا بعينين شاحبتين متسائلتين، يبدو في الخامسة والثلاثين، رغم أنه كان معروفا أن لديه ليس ابنة فقط وإنما حفيدة عمرها ثماني سنوات أيضا. هذه كانت كذبة، غالبيتهم– الرجال البقية القلائل بين الثامنة عشرة والخمسين والذين أخبرهم بذلك– عرفوا ذلك، رغم أن بعضهم اعتقد أنه ذاته يصدقها وحتى أولئك اعتقدوا

أن عليه أن يتعقل قبل أن يوضع في اختبار أمام السيدة ستبن أو عبيد آل ستبن.

يعرفون أكثر أو كانوا أكسل وأقل حيلة من اختبار ذلك، كانوا يقولون أن الرابطة الوحيدة له مع مزرعة ستبن كانت هي أن الكولونيل ستبن سمح له ولعدة سنوات بأن يربض في كوخ متصدع على سلخ في قاع النهر على أرض ستبن والذي كان ستبن قد بناه كمستجم للصيد أيام عزوبيته قبل أن يؤول إلى خراب من قلة الاستخدام ويبدو الآن كوحش بري مريض أو هرم محشور هناك ليشرب الموت.

عبيد آل ستبن ذاتهم سمعوا قوله، وضحكوا، لم تكن المرة الأولى التي يضحكون بها عليه منادينه بالقمامة البيضاء من وراء ظهره. بدؤوا يسألون أنفسهم في مجاميع عندما يلاقونه في الطريق التي تنطلق من السلخ ومجمع الصيد القديم:"لم لست في الحرب أيها الرجل الأبيض؟"

كان يتوقف، ينظر إلى حلقات الوجوه السوداء والعيون البيضاء والأسنان التي تكمن خلفها السخرية، ويجيب: "لأن لدي ابنة وعائلة أرعاها، ابتعدوا عن طريقي أيها الزنوج".

-"زنوج؟"، وكرروا ضاحكين،"زنوج، انظروا إليه ينادينا بالزنوج؟"

- "نعم، وما كنت لأملك زنوجا ليرعوا أقاربي لو أني كنت ذهبت"

- "ولا شيء آخر عدا ذلك الكوخ المتهدم في الأسفل والذي لن يدع الكولونيل أيا منا يقيم فيه"

عندها كان يرشقهم بالماء وأحيانا كان يهرول خلفهم بعد أن ينتزع عصا من الأرض فيما يهربون أمامه، ومع ذلك كانوا يطاردونه بالضحك الأسود الساخر الغامض، غير ممكن التخلص منهم ويتركونه لاهثا عاجزا وهائجا.

مرة حصل ذلك في الساحة الخلفية للمنزل الكبير نفسه، كان هذا بعد أخبار قاسية جاءت من جبال تينيسي ومن فيسكبورج، شيرمان عبر المزرعة ومعظم الزنوج تبعوه، كل شيء آخر تقريبا ذهب مع الحرس الفيدرالي والسيدة ستبن أرسلت كلمة لووش بأنه يستطيع جني العنب الأمريكي الناضج في العرائش. هذه المرة كانت خادمة منزل زنجية من القلائل الذين بقوا، استدارت على درج المطبخ قائلة:" توقف الآن يا عزيزي الرجل الأبيض، قف حيث أنت، لم تعبر أبدا تلك الدرجات عندما كان الكولونيل هنا ولن تعبرها الآن!"

ذاك كان صحيحا، ولكن كان هناك هذا النوع من الكبرياء: لم يسبق له أن حاول دخول المنزل الكبير رغم اعتقاده بأنه إذا ما فعل فإن ستبن سيستقبله ويأذن له،"ولكني لن أعطي الفرصة لأي زنجي أسود أن يقول لي أني لا استطيع الذهاب إلى أي مكان"، قال ذلك في نفسه،"ولن أعطي الكولونيل فرصة لعن زنجي على حسابي".

ذلك رغم أنه وستبن أمضوا أكثر من أمسية معا في أيام أحد نادرة عندما لم يكن هناك ضيوف في البيت. ربما ذهنه أدرك أن ذلك كان لأن ستبن لم يكن لديه شيئا آخر وبحاجة لرفقة، ولكن ظلت حقيقة أن كلاهما أمضيا الوقت كله في تعريشة العنب، ستبن في الأرجوحة وووش يقرفص إلى العمود

وبينهما دلو من ماء، آخذين شربة وراء شربة من ذات الزجاجة. في الأثناء وفي أيام الأسبوع كان يرى خيال الرجل من بعيد، كلاهما كان في نفس العمر رغم أن أيا منهما (ربما لان ووش لديه حفيدة بينما ابن ستبن كان صغيرا في المدرسة) لم يظن ذلك– يتجول على حصانه في المزرعة.

لأجل هذه اللحظة فإن قلبه هادئ وفخور، بدا له أن العالم فيه زنوج، والذين أخبره الإنجيل عنهم أن الله خلقهم ولعنهم ليكونوا بهائم خانعين لذوي البشرة البيضاء، يحيون أحسن منه من حيث السكن والملابس. العالم الذي وعاه كان حوله دائما يقلد أصداء ضحكات سوداء ولكنه كان حلما ووهما، والعالم الحقيقي له كان شعوره بالتمجيد الجاري على العالم الأسود، وكان يفكر أيضا كيف أن الكتاب المقدس قال أن كل البشر قد خلقوا على صورة الله وهكذا فان كل البشر لهم نفس الصورة في عيني الله على الأقل، ولهذا يمكن القول أن رجلا فخورا سيحادث نفسه هكذا:" لو نزل الله بنفسه وعاش على الأرض فإن هذا ما سيهدف لان يكون عليه"

ستبن عاد في عام ١٨٦٥ على حصانه الفحل الأسود، كان قد بدا وكأنه كبر عشرة أعوام، ابنه قتل في نفس الخريف الذي ماتت فيه زوجته. عاد بوسام للبسالة تقلده من يد الجنرال لي إلى مزرعة خربة، حيث منذ عام تعيش ابنته على هبة ضئيلة من الرجل الذي سمح له قبل خمسة عشر عاما بالسكن في موقع الصيد والذي نسي وجوده مع الزمن. ووش كان هناك لملاقاته، دون أن يتغير، لا زال كالحا غير محدد العمر بنظراته الشاحبة المتسائلة، جوه مختلف، متذلل ومألوف، "حسنا سيدي لقد قتلونا ولكنهم لم يهزموننا، أليس كذلك؟".

هذا كان فحوى حواراتهما للخمس أعوام اللاحقة. إنه ويسكي رديء النوع ما يشربانه الآن معا من إبريق خزفي ولم يكن ذلك في تعريشات العنب بل في خلفية المحل الصغير الذي تمكن ستبن من إنشائه على الطريق السريع، غرفة خشبية برفوف حيث أصبح يوزع الكيروسين وطعام الإسطبلات والحلويات الشعبية وكذلك الخرز الرخيص والأشرطة للزنوج والبيض الفقراء أمثال ووش،الذي عمل معه كبواب وكاتب، والذين كانوا يأتون على أقدامهم أو على بغل وضيع ليساوموا بطريقة مضجرة من أجل عشرة سنتات أو ربع دولار مع رجل بإمكانه التجول فيما مضى(الفحل الأسود كان لا يزال حيا والإسطبل الذي عاش فيه كان في وضع أفضل من منزل السيد ذاته) على بعد عشرة أميال في أرضه الخصبة وحيث قاد الجنود بشجاعة في المعارك؛ إلى أن يقرر ستبن أن يفرغ المحل بضراوة، ويقفل الأبواب من الداخل ويرتد هو ووش إلى الخلف والإبريق.

ولكن الحديث لن يكون هادئا كما كان حين كان ستبن يستلقي في الأرجوحة يغني مونولوجا متعجرفا بينما ووش يقرفص الى العمود وهو يقهقه. يجلسان معا الآن رغم أن ستبن يستخدم المقعد فيما ووش يستخدم أي صندوق أو برميل في متناول اليد، ولكن ذلك لفترة قليلة لان ستبن سريعا كان يصل مرحلة الهياج فينهض يترنح ويندفع ويصرّح ثانية أنه سيأخذ مسدسه والفحل الأسود ويركب بيد واحده تجاه واشنطن ويقتل لنكولن حتى الموت، "وشيرمان الآن مواطن خاص، اقتلهم وأطلق الرصاص عليهم كالكلاب التي هم مثلها".

– "نعم أيها الكولونيل"، كان يقول وهو يمسك ستبن حالما يقع ثم كان

يوقف أول عربة مارة وفي حالة عدم توفرها، يمشي ميلا إلى أقرب جار ليستعير واحدة ليعود ويحمل ستبن إلى منزله. لقد دخل المنزل الآن كما صار يفعل منذ مدة طويلة ليأخذ ستبن إلى المنزل في أي عربة تتوفر، يحركه بهمهمات متزلفة كما لو كان حصانا أو الحصان الفحل ذاته. الابنة تستقبلهم وتفتح الباب دون أدنى كلمة، يحمل عبئه خلال المدخل الأبيض الرسمي المتوج بنافذة نصف دائرية تم استيرادها قطعة قطعة من أوروبا مع لوح ممسمرالآن فوق جزء ناقص، عبر سجادة مخملية فني كل وبرها وأعلى درج رسمي، عبر شبح من الألواح المكشوفة بين شريطين من الدهان المتلاشي إلى داخل غرفة النوم، ستكون معتمة الآن وسيدع حمله يتمدد على السرير ويخلع عنه ملابسه ثم يجلس بهدوء في كرسي مجاور. بعد فترة تأتي الابنة إلى الباب.

– "نحن بخير الآن، لا تقلقي أبدا آنسة جوديث"، وبعد ذلك تظلم فيستلقي على الأرض بجانب السرير ولكن لليس للنوم لأنه بعد بعض الوقت وأحيانا قبل منتصف الليل فان الرجل النائم على السرير يتقلب ويتأوه ثم يتحدث: "ووش؟"

– "ها أنا هنا سيدي، عد للنوم، لم يهزمونا، أليس كذلك؟ أنا وأنت نستطيع ذلك"

حتى حينها، كان قد رأى الشريط على خصر حفيدته، عمرها خمسة عشر عاما، ناضجة كأسلافها من بنات جنسها، وعرف من أين أتى الشريط، كان يراه ونوعيته يوميا لمدة ثلاث سنوات، حتى لو كذبت بشأن الحصول

عليه وهو ما لم تفعله، كانت خائفة متجهمة وصريحة، "قولي الآن، لو أعطاك إياه السيد آمل أن تكوني تذكرت أن تشكريه".

ظل قلبه هادئا حتى عندما رأى الثوب، راقب وجهها المتحدي المرعوب عندما قالت له أن الآنسة جوديث ساعدتها على صنعه. ولكنه كان رزينا وهو يقترب من ستبن بعد أن أغلقا المحل في ذلك المساء يتبع واحدهما الآخر إلى الخلف.

– "أحضر الإبريق"، قال ستبن موجها.

رد ووش: "انتظر، ليس الآن لمدة دقيقة"

ولم ينكر ستبن الثوب وسأل ماذا عنه. ولكن ووش قابل نظرته المتعجرفة وتكلم بهدوء "لقد عرفتك لعشرين عام ولم أرفض عمل أي شيء طلبته مني، إني رجل ستيني وهي ليست إلا فتاة ذات خمسة عشر ربيعا".

–"هل تعني أني قد أؤذي فتاة؟ إني رجل مسن بعمرك!"

–"لو كنت أي رجل آخر، كنت سأقول أنك عجوز مثلي. وسواء كنت عجوزا أم لا، ما كنت لأدعها تحتفظ بالثوب أو أي شيء آخر يأتي من يدك ولكن أنت مختلف"

– "أي اختلاف؟"، ولكن ووش نظر إليه بوجهه الشاحب وعيناه المتسائلتين.

– "ولهذا أنت خائف مني؟"

نظرات ووش لم تعد متسائلة، كانت هادئة صافية:"لست خائفا لأنك

شجاع، ليس لأنك كنت شجاعا في دقيقة أو يوم من عمرك أو لأنك تملك ورقة من الجنرال لي تعرضها ولكنك شجاع كما أنك حي وتتنفس وهنا يكمن الاختلاف، ولا أحتاج تذكرة من أحد ليخبرني ذلك أو أن أعرف أنه مهما توليت أو عالجت سواء كان مجموعة رجال أو فتاة مهملة أو حتى كلب صيد فإنك ستفعل ذلك جيدا ويكون كل شيء على ما يرام".

والآن كان ستبن هو من ينظر بعيدا واستدار فجأة بفظاظة وقال بحدة "أحضر الإبريق"

-"نعم سيدي ".

وبعد سنتين من هذا الأحد، كان يراقب القابلة الزنجية والتي مشى ثلاثة أميال ليحضرها ودخل الباب المتصدع والذي تستلقي حفيدته خلفه وهي تنتحب، قلبه كان لا زال هادئا وإنما قلقا متأثرا. علم بما كان يقوله – الزنوج في الكبائن على الأرض، والرجال البيض الذين يتبطلون اليوم بأكمله جوار المحل، مراقبينهم هم الثلاثة ستبن وهو وحفيدته بجوها المستخف ذاك أن حالتها كانت كل يوم تزداد وضوحا، كثلاثة ممثلين جاءوا وذهبوا على المسرح. فكر:"أعرف ماذا يقولون لبعضهم البعض، وأستطيع تقريبا سماعه: ووش جونز ثبت ستبن أخيرا، أخذ ذلك منه عشرين عاما ولكنه فعلها أخيرا".

سيكون الفجر بعد قليل ولكنه لم يحن بعد، من المنزل حيث أضاء المصباح خافتا خلف حلق الباب جاء صوت حفيدته رتيبا كما لو أنها مسيرة بواسطة ساعة، ذهب وهو يفكر ببطء وصفاء ذهن بصوت حوافر حصان

يعدو إلى أن ظهر فجأة شكل الرجل المتباهي على الفحل الجميل الفخور متجولا. ثم تلعثم تفكيره وأفلس بشكل واضح ليس في التبرير أو حتى الشرح، ولكنه المثل الأعلى الوحيد غير القابل للتفسير، خلف كل معوقات اللمسة الإنسانية.

-"إنه أكبر منهم جميعا، اليانكي الذين قتلوا ابنه وزوجته وأخذوا عبيده ودمروا أرضه، وأكبر من هذه البلاد والتي أنكرته إلى محل ريفي صغير، أكبر من النكران الذي حمله إلى شفاهه مثل كوب الجعة في الكتب المقدس، كيف عشت معه عشرين عاما بدون أن أتعلم منه وأتغير من قبله، ربما لست كبيرا مثله وربما أنني لم أقم بأي تجول ولكني على الأقل تعالجت وأنا وهو نستطيع فعل ذلك، وفي هذه الحالة سيريني ما يريدني أن أفعل"

ثم حل الفجر، فجأة استطاع رؤية المنزل والزنجية العجوز في الباب تنظر إليه وأدرك أن أنين حفيدته توقف.

- "إنها بنت"، قالت الزنجية، "تستطيع أن تخبره إن كنت تريد ذلك" ثم عادت ودخلت المنزل.

- "بنت"، وكررها في ذهول وهو يستمع لصوت الحوافر ويرى الخيال المتفاخر يبرز ثانية. بدا وكأنه يراقب مروره وتجسده الذي ميز تراكم السنوات والزمن على حبكة أنه حارب تحت سيف مهدد وراية قد تمزقت بفعل طلقة تندفع تحت السماء بلون مثل الفسفور المدوي، مفكرا للمرة الأولى في حياته هو، "ربما ستبن رجل عجوز مثلي"، فكر "لديه بنت" بذهول ثم فكر بمفاجأة الطفل السارة، "نعم سيدي، لقد عشت لأكون جدا عظيما أخيرا"

دخل المنزل، تحرك بخراقة على أصابع القدمين كما وأنه لم يعد يسكن هنا، وكما لو كان الطفل الذي سحب نفسه الأول وبكى في الليل طرده وإن كان من فصيلة دمه. ولكن حتى فوق سرير القش لم يستطع أن يرى سوى ضبابية وجه حفيدته المنهك، تكلمت الزنجية المقرفصة على الأرض: "الأفضل أن تذهب لتخبره إن كنت تريد ذلك، إنه ضوء النهار الآن".

ولكن ذلك لم يكن ضروريا. لم يحتج سوى أن يستدير تجاه الزاوية حيث المنجل الذي استعاره من ستبن قبل ثلاثة شهور ليقص الحشائش، ليظهر ستبن بنفسه راكبا حصانه الفحل الأسود. لم يعجب كيف أن ستبن عرف واعتقد على وجه اليقين أن هذا ما أتى به في هذه الساعة من صباح الأحد ووقف بينما كان ستبن يترجل وأخذ اللجام من يده، تعبير أبله على وجه النحيل بالنصر وهو يعلن: "إنها بنت، سيدي، وأنت في مثل عمري"، إلى أن تجاوزه ستبن ودخل المنزل، وقف مكانه واللجام بيده وسمع ستبن يجتاز الأرضية إلى سرير القش، لقد سمع ما قاله ستبن وبدا وكأن شيئا مات في داخله قبل أن يتابع.

الشمس كانت الآن عالية، شمس منطقة الميسيسيبي الناعمة، بدا له أنه يقف تحت سماء غريبة في مشهد غريب، مألوف فقط كما تبدو الأمور مألوفة في الأحلام، كحلم السقوط لمن لم يسبق له التسلق،" لا بد أني لم أسمع ما ظننت أني سمعته"، فكر بهدوء، "أعرف أني لا أستطيع!" رغم أن الصوت، الصوت المألوف الذي قال الكلمات لا زال يتحدث إلى الزنجية عن مهر ولد هذا الصباح،"ربما لذلك هو مستيقظ باكرا"، وفكر:"هذا هو، ليس أنا وما يخصني ما أخذه خارج السرير".

ظهر ستبن، انحدر خلال الأعشاب منتقلا بتأن راسخ ربما كان سيكون أكثر عجلة لو أنه كان أكثر شبابا، لم يكن قد نظر إلى ووش نظرة كاملة، قال له:" ديسي ستبقى وتتولى أمرها، الأفضل لك..." ثم بدا له أن ووش يواجهه وتوقف سائلا:"ماذا؟".

"أنت قلت"، وبدا لأذنيه صوت ووش منبسطا كصوت البطة، كرجل أصم، "أنت قلت أنها لو كانت فرسا كنت ستعطيها مربطا جيدا في الإسطبل؟".

استفهم ستبن:"حسنا؟"، واتسعت عيناه ثم ضاقتا كما تنقبض وتنثني قبضة اليد عندما بدأ ووش بالتقدم نحوه مهاجما. الذهول التام جعل ستبن ساكنا للحظة يراقب الذي عرفه خلال عشرين لا يتحرك إلا بأمر عدا إلى أن أمسك الحصان الذي يركبه. عيناه ضاقتا ثم اتسعتا وبدون أن يتحرك زأر فجأة بصوت عال: "ارجع مكانك"، ثم قال فجأة وبحدة "إياك أن تلمسني".

"بل سأعلمك سيدي، قال ووش بصوته الهادئ الناعم وهو يتقدم. ستبن رفع يده التي تمسك بالسوط؛ الزنجية العجوز حدقت حول الباب المصدع بوجهها البشع كخرافة بالية، "قف راجعا يا ووش"، قال ستبن ثم اضطرب. العجوز انطلقت خلال الأعشاب برشاقة عنزة، ستبن جرح ووش في وجهه ثانية بالسوط وكومه على ركبتيه. عندما نهض ووش وتقدم مرة أخرى كان يحمل في يده المنجل الذي استعاره من ستبن منذ ثلاثة شهور والذي لن يحتاجه ستبن ثانية.

عندما عاد ودخل المنزل كانت حفيدته تتقلب على سرير القش وتنادي

اسمه باضطراب، "ماذا كان ذلك"، سألت، "ماذا كان ذلك يا حبيبي، هذه الضجة في الخارج؟"

– "لا شيء "، قال بلطف وانحنى يلمس جبهتها كيفما اتفق: "هل تريدين أي شيء؟"

–"رشفة ماء"، قالت متبرمة "كنت استلقي هنا أنتظر رشفة ماء لفترة طويلة ولكن ما من أحد أعارني اهتماما".

– "الآن حالا"، حاول تهدئتها، نهض وأحضر لها مغرفة الماء ورفع رأسها لتشرب وأراحه ثانية وراقبها وهي تستدير تجاه الطفلة بوجه مصقول ولكنه بعد لحظة رأى أنها كانت تبكي بهدوء.

– "الآن، ما كنت لأفعل ذلك، ديسى العجوز تقول أنها بنت معافاة جميلة وكل شيء على ما يرام، انتهى كل شيء وما من مبرر للبكاء"

ولكنها استمرت بالبكاء بهدوء وبحزن، نهض ثانية ووقف غير مرتاح فوق سرير القش لبعض الوقت مفكرا كما فعل عندما ولدت زوجته ثم ابنته، "النساء، إنهن أمر غامض بالنسبة لي، يبدون راغبات بهم وعندما يحصلن عليهم يبدأن بالبكاء لذلك، إنه شيء غامض لي ولأي رجل"، ثم نهض بعيدا وسحب كرسيا إلى النافذة وجلس.

خلال هذا الوقت، كان صدر النهار مشرقا ومشمسا وهو جالس إلى النافذة ينتظر، كل حين وآخر كان ينهض على أطراف أصابعه إلى سرير القش ولكن حفيدته نامت الآن، وجهها منهك هادئ وتعب، الطفلة في انحناء ذراعها، ثم عاد إلى الكرسي وجلس ثانية ينتظر ويعجب لم أخذ ذلك

منهم كل هذا الوقت إلى أن تذكر أنه يوم أحد، كان جالسا هناك في الظهيرة عندما جاء صبي أبيض اللون بجانب زاوية المنزل قرب الجثة وأطلق صرخة مخنوقة ونظر وحدق للحظة طويلة في ووش الجالس عند النافذة قبل أن يستدير وينطلق، عندها قام ووش على أطراف أصابعه ثانية إلى السرير.

كانت الحفيدة قد استيقظت للتو على صوت صراخ الطفلة دون أن تسمعها، "ميلي . هل أنت جائعة؟" سأل ولكنها لم تجب وأدارت وجهها بعيدا، أضرم نارا على الأرض وطبخ الطعام الذي أحضره إلى المنزل في اليوم السابق، مع خبز الذرة البارد، صب الماء في وعاء القهوة البالي وسخنه، ولكنها لم تأكل عندما حمل الصحن إليها ولذا أكل وحده بهدوء وترك الصحون على حالها وعاد إلى النافذة.

والآن بدأ يعي ويشعر بالرجال الذين يتجمعون مع خيولهم وبنادقهم وكلابهم – فضوليين وحاقدين: رجال من نوعية ستبن كانوا يشاركونه مائدته عندما كان على ووش أن لا يقترب من المنزل أكثر من مجمع الصيد، والذين علّموا من هم أقل منهم كيفية القتال في المعارك وربما كانوا يملكون وثائق موقعة من الجنرال تقول بأنهم من أوائل الشجعان، والذين حاربوا في الأيام الخالية فخورين متغطرسين على الخيول الجميلة عبر المزارع اليانعة – رموز للإعجاب والأمل وأدوات لليأس والحزن.

وبينما كان يتوقع له الهرب، بدا له أن ليس هناك ما يهرب منه بقدر ما عليه أن يركض إليه. لو هرب فسوف يتحاشى بسرور ظلال متبجحة لأخرى مثلهم تماما لأنهم كانوا من صنف واحد على الأرض التي يعرفها، وهو كان

مسنا، مسنا جدا للفرار إن كان عليه أن يفر ولن يمكنه التخلص منهم بغض النظر عن كيف وكم ابتعد عنهم: رجل ماض في الستين لا يمكن له الهرب بعيدا، ليس بعيدا ليهرب خارج حدود الأرض التي يعيش عليها أولئك الرجال يصدرون الأوامر ويحددون قواعد المعيشة. لقد بدا له أنه رأى للمرة الأولى، بعد خمسة سنوات، كيف تمكن اليانكي أو أي جيش حي من هزيمتهم: أولئك الأنيقين، المتفاخرين، الشجعان المميزين والمختارين من بينهم جميعا لتمثيل الشجاعة والشرف والكبرياء. ربما لو كان ذهب معهم إلى الحرب لكان اكتشفهم أبكر ولكنه لو كان اكتشفهم باكرا ماذا كان سيفعل بحياته منذ ذلك الحين؟ كيف يمكنه أن يجد الحد ليتذكر كيف كانت حياته قبل تلك السنوات الخمس؟

الشمس تتجه للمغيب والطفلة تبكي، عندما ذهب إلى السرير القشي وجد حفيدته ترعاها، وجهها لا زال مرتبكا، حزينا وغامضا، "ألم تجوعي بعد؟"، ردت:"لا أريد شيئا".

- "ولكن عليك أن تأكلي" وهذه المرة لم تجب واستمرت بالنظر إلى أسفل.. إلى الطفلة، عاد لكرسيه ووجد الشمس قد غربت. "لا يمكن أن يتأخر ذلك أكثر"، وهو يسمعهم بالجوار- الفضوليين الحاقدين، واستطاع حتى أن يسمع ما كانوا يقولون عنه، صوت الظن خلف الضراوة الفورية: العجوز ووش جونز يهوي أخيرا، لقد ظن أنه نال ستبن ولكن ستبن خدعه، ظن أن بإمكانه أن يجعل السيد يتزوج الفتاة أو يدفع ولكن السيد رفض.

- "ولكني لم أتوقع ذلك أيها السيد" وهو يمسك نفسه على صوته

ويسترق النظر ليجد أن حفيدته تراقبه وقالت:"من الذي تكلمه الآن؟"

– "لا شيء، كنت أفكر وتكلمت قبل أن أدرك ذلك"

وجهها أصبح باهتا ثانية، ضبابية غمرت الشفق. "أظن ذلك، أظن أنك يجب أن تصرخ أعلى من ذلك ليسمعك القائم في ذلك المنزل وأظن أنك تحتاج أكثر من الشكوى لتأتي به هنا أيضا"

– "نعم الآن"، قال، "لا تقلقي"، ولكن أفكاره كانت تسير بانسيابية: "أنت تعرف أني لم، أنت تعرف أني لم أتوقع أو اسأل شيئا من أي رجل إلا ما توقعت منك ولم اسأل ذلك أبدا، لم أظن أن الأمر يحتاج ولم أطلب ذلك البتة، قلت أني لا أحتاج، ماذا عساه يحتاج رجل مثل ووش جونز أن يسأل عنه أو يشك بالرجل الذي يقول عنه الجنرال لي بخط يده أنه شجاع؟ شجاع"، فكر، "من الأفضل لو أن أيا منهم لم يعد في ٦٥، أعتقد أن من الأفضل لو أن نوعه ونوعي لم يسحبا نفس الحياة على هذه الأرض، خير لنا أن نلعن من وجه الأرض من أن يأتي ووش جونز آخر يرى حياته ممزقة عنه وترمى كقشرة جافة إلى النار".

سكن، سمع الخيول فجأة بوضوح، رأى المشعل وحركة الرجال.. تلألأ براميل البارود بلمعانها المتحرك، لم يتحرك، كان الوقت ظلاما الآن واستمع إلى خشخشة الشجيرات وهم يطوقون المنزل، المشعل اقترب وضوؤه غمر الجثة الهامدة في العشب وتوقف، الخيول طويلة ولها ظلال، رجل انحدر ووقف في ضوء المشعل فوق الجثة، حمل مسدسا، نهض وواجه المنزل.

وقال:"جونز".

رد جونز من النافذة بهدوء:"أنا هنا، هل هذا أنت أيها الرائد؟"

-"اخرج"

- "نعم" قال بهدوء، "ولكني أريد فقط أن أنظر إلى حفيدتي"

- "سنراها، تعال إلى الخارج"

- "نعم أيها الرائد، دقيقة واحدة"

- "أظهر ضوءا، أشعل مصباحك"

- "نعم، خلال دقيقة"، كان بإمكانهم سماع صوته يتقهقر داخل المنزل رغم أنهم لم يروه وهو يذهب بخفة إلى صدع المدخنة حيث احتفظ بسكين الجزارة: الشيء الوحيد في المنزل وحياته الذي يفخر به كون شفرته حادة جدا، اقترب من سرير القش وسمع صوت حفيدته تقول: " من ذاك؟ أضئ المصباح يا جدي"

- "لا حاجة للضوء يا حبيبتي، لن يتطلب ذلك أكثر من دقيقة" قال وهو ينحني ويتحسس اتجاه صوتها وهمس:"أين أنت؟"

- "أنا هنا"، قالت باضطراب، "وأين يمكن أن أكون؟ ما.." ولمست يده وجهها وهي تقول ماذا يا جدي.

- "جونز"، نادى الشريف،"أخرج من هناك"

- "في دقيقة واحدة فقط أيها الرائد"، ونهض وتحرك بخفة، وعرف أين في الظلام توجد علبة الكيروسين كما كان يعرف أنها ممتلئة لأنه لم يمر يومان منذ أخذها إلى المحل وملأها وانتظر إلى أن يجد ركوبا إلى المنزل معها لأن

الجالونات الخمسة كانت ثقيلة، كان هناك فحم على الأرض، عدا عن أن البناية المتصدعة نفسها كانت سريعة الاحتراق: الفحم، الأرض، الجدران انفجرت بلهب أزرق ساطع. مقابلهم رآه الرجال يهرع إليهم في لحظة متوحشة حاملا معه المنجل قبل أن تصهل الخيل وتندفع، كبحوا الخيل وأعادوها ناحية الضوء، ولكن الشبح ركض تجاههم بمنجله

-"جونز"، صرخ الشريف، "توقف توقف وإلا أطلقت النار"، ولكنه شق طريقه تجاههم عبر صوت اللهب، وعبر صوت الخيل وعيون الجياد المترقبة وبدون أي صرخة أو صوت.

# الفهرس